سلسلة كتب الإمام الحدّاد ١٠

كتاب

إتحاف السائل

بجواب المسائل

للإمام شيخ الإسلام قطب الدّعوة والإرشاد

الحبيب عبد الله بن علوي الحدّاد الحضرمي الشّافعي

رحمه الله تعالى

دار الحاوي

للطباعة والنشر والتوزيع



الطبعَـة الأُولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

بالتعـــاون مـــع:

الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان

هاتف ٣٤٢٨٨٦ ــ ص.ب ٥٩٢٠ ـ ١١٣ ــ تلكس ٤٣٢١٨ ــ فاكس ٨٦٠١٢٨ ـ ١ ـ ٩٦١

تعريف مُوجز عن الإمام الشهير عبد الله بن علوي بن محمّد الحداد

هو سيّدنا الإمام العلّامة الدّاعي إلى الله بقوله وفعله قطب الارشاد الحبيب عبد الله بن علوي بن محمّد الحدّاد ولد رضي الله عنه بالسبير من ضواحي مدينة تريم بحضرموت ليلة الخميس ٥ صفر سنة ١٠٤٤هـ وتربّى في تريم وقد كُفّ بصره وهُو صغير فعوّضه الله عنه بنور البصيرة وجدّ واجتهد في طلب العلوم النافعة وعكف على عُلماء عصره في مُقدّمة مشايخه سيدنا الحبيب عُمر بن عبد الرّحمن العطاس والحبيب العلّامة عقيل بن عبد الرحمن السّقاف والحبيب العلّامة عبد الرحمن بن شيخ عيديد والحبيب العلامة سهل بن أُحمد باحسن الحديلي باعلوي ومن مشايخه أيضًا الإمام العلّامة عالم مكّة المكرمة السّيد محمّد بن علوي السّقاف.

ثم نصبه الله للدعوة والإرشاد داعيًا إلى الله تعالى

بالحكمة والموعظة الحسنة فأقبل عليه الناس وانتشر
صيته في البلدان وانتفع به القاصي والداني فنفع الله
به الكثير وأرشد الجم الغفير وانتشرت دعوته في كل مكان
وانتفع الناس بوعظه وكتبه وأخذ عنه الجم الغفير
فمن كبار تلامذته ابنه سيدنا الحبيب حسن بن عبدالله الحداد
والحبيب أحمد بن زين الحبشي والحبيب عبدالرحمن بن عبدالله
بلفقيه والحبيبين محمد وعمر أبناء زين بن سميط والحبيب عمر بن
عبدالرحمن البار والحبيب علي بن عبدالله بن عبدالرحمن السقاف
والحبيب محمد بن عمر بن طه الصافي السقاف وغيرهم العدد الكثير .
وله مؤلفات كثيرة جمعت النصائح والمواعظ والحكم وانتشرت
انتشاراً كبيراً وكتب لها القبول والمحبة ونفع الله بها الناس
وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى لغات أجنبية في العصر الحاضر
مثل الإنجليزية والفرنسية . ومؤلفاته غنية عن التعريف

ومشهورة لدى الكبير والصغير ومنها النصائح الدينية. والدعوة التامة ورسالة المعاونة وغيرها من الوصايا والرسائل ومجموع كلامه تثبيت الفؤاد وديوانه العظيم الدر المنظوم الجامع للحكم والعلوم ووصاياه ومكاتباته وأكثر مؤلفاته مطبوعة وأقبل عليها الناس إقبالاً شديداً وأعجب بها العلماء والعارفون وجعلوها بمنزلة الغذاء يقرئون فيها في كثير من الأوقات وقالوا عنها انها جمعت الخلاصة والزبدة من كلام الإمام حجة الاسلام الغزالي ولا يستغني عنها كل مسلم فهي وجيزة وجامعة ونفع الله بها ببركة مؤلفها الإمام الحداد رضي الله عنه وكان رضي الله عنه قد سافر إلى الحرمين الشريفين وأدى النسكين وزار جده سيد الكونين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وذلك في عام ١٠٧٩ هجرية واجتمع بعلماء الحرمين الشريفين الذين اغتبطوا به وعرفوا قدره وأثنوا عليه .

ولم يزل يدعوا الناس إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة حتى وفاته إلى رحمة الله تعالى فتوفي ليلة الثلاثاء ٧ ذو القعدة عام ١١٣٢ هجرية ودفن بمقبرة زنبل بتريم رحمه الله رحمة واسعة ورضي الله عنه ونفعنا به وبعلومه في الدارين آمين .

طه بن حسن بن عبد الرحمن السقاف

حرر الجمعة ٢٢ شوال سنة ١٤١٢

صور من المخطوطات المستعان بها
في طبع هذا الكتاب

كتاب [illegible] في جواب المسائل لسيدنا الإمام قطب
دائرة الإسلام الشيخ الشهير والعلم
المنير أبي الحسن عفيف الدين
عبد الله بن الشيخ
علوي بن محمد
الحداد
أغاث الله به العباد والبلاد

صفحة الغلاف من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي
العظيم سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم
الحكيم الحمد لله الذي لا يخيب من امله ولا يرد من سأله
ولا يقطع من وصله ولا يبخس من عامله ولا يسلب من شكره
ولا يخذل من نصره ولا يوحش من استأنس بذكره (٣)
ولا يسلم من استسلم [illegible] ولا يكل من توكل عليه
ولا يهمل من التجأ اليه ولا يضل من تمسك بكتابه
ولا يذل من لاذ بجنابه احمده على ما الهم وعلم واشكره على
ما افضل وانعم واستعينه على القيام بحقه الاعظم
واعوذ بنور وجهه الكريم من زوال النعم وهجوم النقم
واصلي واسلم على نبيه الاكرم ورسوله الافخم وحبيبه
الاعظم سيدنا ومولانا محمد وعلى اله وصحبه معادن
الفضل والكرم وينابيع العلم والحكم ما جرى قلم ونصب
علم اما بعد فقد طلب مني الشيخ الزكي ذو الفهم الذكي
عبد الرحمن بن عبد الله عباد جوابا على عدة مسائل
اشتبهت في ورقة ودخل بها الي وذلك بمدينة شبام
عند صدوري من زيارة الشيخ الكبير العارف
بالله سعيد بن عيسى العمودي ومن بتلك النواحي
من عباد الله الصالحين الاحياء منهم والميتين فوعدته

[illegible]

الصفحة الأولى من المخطوطة

كلما وقع فيه مما يخالف الحق او يميل الى الباطل او يوافق الهوى
او داخلنا رياء وتصنع للخلق وغفر لمن كان السبب
في تاليفه وكاتبه ومستكتبه وسامعه ولوالدينا واحبابنا وجميع
المسلمين والحمد لله ما بنا من نعمة في بواطننا وظواهرنا
وديننا ودنيانا فانا نعلم ونوقن انها منك وحدك لا شريك
لك فلك الحمد ولك الشكر على ذلك عايذين بوجهك الكريم من سلب
النعم وحلول النقم سايلين بفضلك ان تعاملنا بمقتضى الجود
والكرم وان لم نكن اهلا فانك اهله رب اغفر وارحم وانت
خير الراحمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين
وكان الفراغ من املائه يوم الجمعة خامس عشر
المحرم اول شهور سنة اثنتين وسبعين
والف من الهجرة النبوية
على صاحبها افضل
الصلاة والسلام
وصلى الله على
سيدنا محمد
وآله وصحبه وسلم اولا وآخرا وظاهرا وباطنا آمين
آمين

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم

الحمد لله الذي لا يخيب من أمله، ولا يرد من سأله، ولا يقطع من وصله، ولا يبخس من عامله، ولا يسلب من شكره، ولا يخذل من نصره، ولا يوحش من استأنس بذكره، ولا يسلم من لم يستسلم لقهره، ولا يكل من توكل عليه، ولا يهمل من التجأ إليه، ولا يضل من تمسك بكتابه، ولا يذل من لاذ بجنابه.

أحمده على ما ألهم وعلّم، وأشكره على ما أفضل وأنعم، وأستعينه على القيام بحقه العظيم، وأعوذ بنور وجهه الكريم، من زوال النعم وهجوم النقم.

وأصلي وأسلم على نبيه الأكرم ورسوله الأفخم، وحبيبه الأعظم، سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه معادن الفضل والكريم، وينابيع العلم والحكم، ما جرى قلم ونصب علم.

أما بعد: فقد طلب مني الشيخ الزكي ذو الفهم الذكي عبد الرحمن بن عبد الله عباد، جوابا على عدة مسائل، أثبتها في ورقة، ودخل بها إليّ وذاك بمدينة شبام، عند صدوري من زيارة الشيـخ الكبير العارف بالله سعيد بن عيسى العمودي، ومن بتلك النـواحي من عباد الله الصالحين، الأحياء منهم والميتين، فوعدته بالجواب، لما رأيت عليه من لوائـح الرغبة في معرفة الحق، وشممت منه روائـح الصدق.

وقد حان حين إنجاز الوعد بحول الله وقوته، وإكرام وفد أسئلته اللائقة، بقِرى الأجوبة الرائقة.

وأرى أن أورد مقدمة بين يدي الكلام على المسائل، يكون فيها تبصرة وإيناسٌ للسائل، ولمن ينجو نحوه من الألباء الأكياس، فأقول مستعيناً بالله، ومتوكلا على الله، ومفوضاً إلى الله، وسائلا منه سبحانه، أن يهديني لما هو الحق عنده، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾.

مُقدّمـة

أعلم أن السؤال في مواضـع الحاجة، وفي مواطن الإشكال، ولطلب المزيد من العلم والاستبصار، مما جرت عليه عادة الأخيار في الأعصار والأمصار، وهو أعني السؤال، واجب عن العلم الواجب، وفضل عن العلم الذي هو فضيلة والسؤال مفتاح يتوصل به إلى ما في الصدور والقلوب، من معاني العلوم وأسرار الغيوب.

فكما أنه لا يـوصل إلى مـا في البيوت من الأمتعـة والنفائس إلا بالمفاتيـح المتخذة من الحديد والخشب، كذلك لا يـوصـل إلى مـا عنـد العلمـاء والعـارفين، من العلوم والمعارف، إلا بالأسئلة المتخذة من طلب الاستفادة، مقرونةً بالصدق والرغبة وحسن الأدب.

وقد ورد الشرع بالأمر بالسؤال، وورد الحث عليه، والترغيب فيه، قال الله تعالى: ﴿فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك﴾. وقال تعالى: ﴿فاسئلوا أهل الـذكر إن كنتم لا تعلـمون بالبينات والزبر﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «حسن السؤال نصف العلم».
وكل من أخبر من الأئمة عن سعة علمه، فقصده بذلك أن يُعرف به فيسأل عنه، ويطلب منه. وقد روي ذلك عن عليّ كرم الله وجهه، وعن ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبي هريرة، وغيرهم من السلف والخلف رضي الله عنهم.

وقد حرض جماعة من العلماء الناس على السؤال منهم، كعروة بن الزبير والحسن البصري وقتادة.

وكان سفيان الثوري، يبادر بالرحيل من كل بلدة دخلها، ولم يسأله أحد من أهلها عن شيء من العلم، ويقول: هذا بلد يموت فيه العلم.

وكان الشبلي رحمه الله، إذا جلس في حلقته ولم يسأله أحد، يتلو عليهم قوله تعالى: ﴿ووقع القولُ عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾.

وربما يسأل العالم جلساءه، ليفيدهم وليعرف به ما عندهم من العلم كما ورد في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان في جماعة من أصحابه فسألهم عن شجرة لا يسقط ورقها، وهي شبيهة بالمؤمن، فلم يعرفها الحاضرون، حتى أخبرهم عليه الصلاة والسلام أنها النخلة، وكان فيهم ابن عمر، وكان قد عرفها فلم يتكلم، فلما أخبر أباه بذلك، لامه على سكوته.

وكان عمر رضي الله عنه، يسأل جلساءه كثيراً، وكان إذا سأل أحداً عن شيء فقال: الله أعلم، يغضب ويقول له: لم أسألك عن علم الله، وإنما أسألك عن علمك، فقل: أعلم أو لا أعلم.

وقد يسأل العالم بعض الجلساء عما يعلمه، ليفيد سائرهم، نظير ذلك سؤال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان. الحديث.

وقد يختص المفضول بعلم دون الفاضل، لسر لطيف، فيسأله أعني من هو أفضل منه عنه، نظير ذلك: سؤال عمر لحذيفة رضي الله عنهما، عن الفتن وأهل النفاق.

وقد يسأل العالم، من هو مثله أو قريب منه، عن شيء فهمه في كتاب الله، أو في سنة رسول الله ﷺ لينظر هل يوافقه على مثل رأيه، ويقوى به ويعتضد، وذلك كسؤال عمر رضي الله عنه جماعة من الصحابة، عن شيء فهمه في سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فلم يوافقه على ما في نفسه منهم سوى ابن عباس رضي الله عنهما، ومثل هذا كثير، يقع للأكابر من المتقدمين والمتأخرين.

وأما سؤال عمر لعليّ رضي الله عنهما، فهو على قصد الاستفادة منه، وذلك أن عليا خص بخصوصية، لم يشاركه

فيها أحد من الصحابة، وهي أنه باب مدينة العلم التي هي رسول الله ﷺ.

وأما نهي رسول الله ﷺ لأصحابه، عن الإكثار من سؤاله. فالنهي وإن كان عاما، فإنه مخصوص بالسؤال عن الأحكام والحدود، وأحوال الناس، شفقة منه عليه الصلاة والسلام على أمته، ورحمة بهم على أن يكلفوا شيئاً، يعجزون عن القيام به.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم عفا الله عنها والله غفور حليم قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾.

وقول رسول الله ﷺ: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها».

وفي الحديث الآخر: «إنما أهلك الذين من قبلكم، كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم».

وقد سأل رجل رسول الله ﷺ عن الحج: أهو واجب في كل عام؟ فسكت عنه، فلما أكثر عليه، قال: في العمر

مرة، ولو قلت: نعم لوجبت وعجزتم وتحت هذه النكتة سر شريف، لا يسمح بذكره في الكتب، فاطلبه تحت أستار قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾.

وينبغي للمريد إذا سأل شيخه، وللمتعلم إذا سأل معلمه عن شيء أن لا يكون له قصد سوى الاستفادة، وليحذر أن يكون قصده الامتحان والاختبار، فيرجع بالحرمان والخسران.

وينبغي للشيخ والعالم، إذا سأله مريده أو تلميذه عن شيء يضره علمه، أو لا يبلغه فهمه، أن ينظر، فإن عرف من حال السائل: أنه إن أخبره بعدم أهليته، لا ينكسر قلبه انكسارا يضره في دينه، ولا تنفر نفسه نفرة، يعرض به عن مطلوبه، ، فليخبره وإلا فليتنزل له في جوابه إلى حد علمه وفهمه، وإن عدل عن مقتضى السؤال، ولا يقول كما قال بعض أهل الحقيقة:

عليَّ نحت القوافي من معادنها وما عليَّ إذا لم تفهم البقر

فلهذا المقال حال، وموطن يخصه، والشيخ والعالم كالوالد الشفيق والقيم الرفيق، يتكلم ويعامل بحسب المصلحة والمنفعة.

وللعارفين غلبات واستغراقات، لا يمكنهم معها أن

يستحضروا ما أشرنا إليه فلتسلم لهم أحوالهم، فإنهم أجل من أن يعترض عليهم، أو ينسب الجهل والتجاهل إليهم، وليس هذا محل بسط العذر للمحققين فيما أودعوه كتبهم ورسائلهم من الأسرار الربانية والحقائق الغيبية.

وقد يباح السؤال بقصد الامتحان في موضعين:

أحدهما أن يرى العالم الناصح الشفيق إنساناً قد غلب عليه الإعجاب بنفسه، حتى منعه من طلب العلم، وطلب المزيد منه، وعن الاعتراف بفضل أهل الفضل فله أن يسأله على قصد الامتحان والاختبار، ليعرفه مقداره نصحاً له وكون ذلك في خلوة أولى.

والثاني أن يرى منافقاً عليم اللسان، يخشى منه أن يلبس على ضعفاء المؤمنين، بإدخاله في الدين ما ليس منه، فيسأله بمحضر منهم ممتحناً له، ليبين لهم عواره وجهله ويقصد مع ذلك نصحه، وتنبيهه على معائبه، ويرجو رجوعه إلى الإنصاف والانقياد للحق، وهذا الأمر هو الذي دعا العلماء رضي الله عنهم إلى مناظرة أهل الابتداع والزيغ والتحريف.

وإذا سئل العالم عن علم يجب عليه تعليمه، لم يسغ له السكوت لقوله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار».

وينبغي لعلماء هذا الزمان، إن لا يكتموا العلم حتى يأتيهم من يسألهم، فإن أكثر الناس اليوم قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين، وقلة الاحتفال بالعلم وبما ينفع في الآخرة، حتى إنها ربما شابت لحية الانسان، وهو لا يعرف فروض الطهارة والصلاة، ولا ما يتعين عليه علمه، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولسان أحوالهم تنادي عليهم بالجهل، وكفى بها سائلا للعلماء إن كانوا يعقلون.

وينبغي للمريد الذاهب إلى الله، المقصور همه على ابتغاء معرفة الله، الراغب في التخلص عن كل ما يشغله عن الذهاب في الله، أن لا يسأل أحداً عن شيء من العلم، إلا إن كان من ضرورة حاله أو وقته، ولكن المريد على هذا الوجه في هذا الزمان المبارك، أغرب من عنقاء مغرب، وأعز من الكبريت الأحمر.

فليستكثر الإنسان من السؤال عن العلم، لطلب الاستفادة والزيادة، فإن المؤمن لا يشبع من خير، وفي الحديث: «منهومان لا يشبعان منهوم العلم، ومنهوم المال».

والدليل لما ذكرنا في شأن المريد، ما بلغنا عن داود الطائي رحمه الله، أنه لما عزم على الانقطاع إلى الله، بدأ بمجالسة أهل العلم، فجالس الإمام أبا حنيفة رحمه الله قريباً

من سنة، قال: وقد تقع له المسألة، وهو أشوق إلى العلم بها من العطشان إلى الماء البارد فلا يسأل عنها، وذلك لما ذكرناه من أنه لا ينبغي للمريد أن يسأل إلا عما هو ضرورة في حقه.

ثم إن لجملة ما أوردناه من المسائل في هذه المقدمة الوجيزة، أدلة كثيرة، لو بسطناها لخرجنا عن مقصودنا من الإيجاز، وفيما أشرنا إليه كفاية وبالله التوفيق ومنه الإعانة والتثبيت، وبه الثقة وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وهذا أوان الشروع في المقصود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(١) **سألتَ** ـ أكرمك الله بالفهم النوراني والفتح الرباني، عن معنى لا إلـه إلا الله؟.

فاعلم ـ أن جميع العلوم الدينية ووسائلها، ترجع إلى شرح معنى هذه الكلمة الشريفة، وشرح حقها الذي هو الأمر والنهي والوعد والوعيد، وما يتبع ذلك، وما كان شرحا لحقها، كان شرحا لها بحكم التبعية، والقصد التعريف بأنه لا سبيل إلى الإحاطة بشرح علومها، فضلا عن إيراده، كما سيأتي.

وأما شرح معناها في نفسها، فهو العلم الذي يطلق عليه علم التوحيد، وهو البحر الزاخر الذي لا يبلغ له ساحل، ولا يدرك له قعر، وقد سبح النظار من المتكلمين في باحته،

وغاص المحققون من العارفين في لجته فأدركوا من لطائفه ونفائسه وعجائبه وغرائبه، ما يجل قدره ويتعذر حصره.

ثم أجمعوا بعد طول البحث والإمعان، وفناء الطاقة والإمكان على الاعتراف بالعجز عن الغاية، والوقوف على النهاية، وذلك لأن الإحاطة بعلوم التوحيد، موقوفة على الإحاطة بذات الموحد وصفاته، تعالى عن ذلك علوا كبيراً.

وقد أجمع المحققون على أن الإحاطة بذات الله تعالى وصفاته غير ممكنة، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد شذ من قال من المنتمين إلى الطائفة، بما يوهم حصولها، ولا حاجة بتسمية القائل، إذا قد علم فساد ما قاله، وإنما كانت الإحاطة به سبحانه محالة، لاستلزامها معنى من القهر والاستيلاء، فإن المحيط بالشي، من طريق العلم أو غيره، مستولي عليه وقاهر له من كل الوجوه أو بعضها، والحق تعالى هو القاهر الذي لا يقهر، فاعلم ذلك.

وعلم التوحيد على قسمين: **أحدهما ظاهر**، وهو الذي يعلم بالدليل والبرهان. ويجب على كل مؤمن، أن يعلم ويعتقد منه مالا يصح إيمانه بدونه.

والمتكلم هو الذي يعتني بتحرير هذا العلم، والذب عنه، والفحص عن أدلته وبراهينه، فيفضل عامة المؤمنين بذلك، وفضله إن كان إيمانا وعلما، وإلا كان صورة فقط.

والثاني من القسمين: باطن وهو ما لا يدرك بدون الكشف والعيان، وذلك ميراث التقوى، ومعنى الهداية التي هي ثمرة المجاهدة، وهو سر بين العبد وبين ربه، وقد يتفاوض أهله في أشياء منه فيما بينهم، ولهم رضي الله عنهم الغيرة التامة على أن يقف على شيء منه من ليس من أهله، حتى كان الجنيد رحمه الله إذا أراد أن يتكلم فيه مع أصحابه يغلق الباب ويجعل المفاتيح تحت وركه وذلك رحمة منهم بالمؤمنين.

فإن الواقف على هذا العلم من غير أهله: إما أن ينكره، فيكون عند الله من المكذبين بما لم يحيطوا به علما، وإما أن يصدق به، ويفهمه على غير الوجه المراد منه، فيتعثر في أذيال الخطأ.

واعلم أنها قد توجد من هذا العلم تلويحات، في كتب المحققين، كالإحياء والقوت، وإنما سمحوا بها تشويقاً للمريد الصادق في بعض المواضع، لتوقف حصول الفائدة، من علم المعاملة الذي هم بصدد بيانه على ذكر ذلك. وإلا فهم أشح شيء بإيراده.

أما ترى الإمام الغزالي رحمه الله، حين يشرف على بحاره المتلاطمة يقول:

ولنمسك عنان القلم، وتارة يقول: هاهنا سِرٌ فلنتجاوزه،

وأخرى: هذا من علم المكاشفة، وليس من غرضنا ذكره في علم المعاملة، إلى غير ذلك.

وأما من أورد من الصوفية في كتبه أطرافا من هذا العلم، كالحاتمي والكيلاني ومن نحا نحوهما، فليحمل ذلك منهم على الغلبة، والمغلوب معذور، أو على الإذن والمأذون له مأمور يجب عليه الامتثال، وسر الإذن في ذلك لا يجوز ذكره إلا مشافهة.

فصل

نذكر فيه طرفا من ظاهر معنى لا إلـه إلا الله، وقد أسلفنا العذر المقتضي للسكوت عن باطن معناها، فنقول:
اعلم أنه لا إله إلاّ الله واجب الوجود لذاته الفرد الواحد الملك القادر، الحي القيوم القديم الأزلي، الدائم الأبدي، الذي هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، تقدس وتعالى عن الشبيه والنظير، وعن الشريك والوزير، لا تحده الأزمان ولا يشغله شأن عن شأن، لا تحيط به الجهات ولا تعتريه الحادثات، له الغنى المطلق عن كل شيء، بكل معنى ومن كل وجه. وكل ما سواه مفتقر إليه فقراً لا يتصور أنفكاكه عنه، خلق الخلق أجمعين، وخلق أعمالهم خيرها وشرها، فتبارك الله أحسن الخالقين، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون خلقهم ورزقهم، وأنزل الكتب وبعث الرسل لهدايتهم، لطفا بهم وتفضلا عليهم، يجب توحيده وطاعته على عباده، بإيجابه

على ألسنة رسله، ولا يجب عليه لأحد شيء، لأنه المالك لكل شيء المستولي على كل شيء، فليس لأحد معه ملك ولا لأحد عنده حق، وعد المحسنين بثوابه فضلا، وتوعد المسيئين بعقابه عدلا.

فالإلـه هو الجـامـع لجميـع هذه الصفـات، وهو الله الذي لا إلـه إلا هو لأن هذه الأوصاف ثابتة لـه تعالى، ولا يصـح لغيره على الإطلاق الاتصاف بشيء منها، فضلا عن جملتها.

فمن نفى الإلهية عنه أو أثبتها لغيره، أو أشرك معه فيها سواه فقد أعظم البهتان وأحاط به الخسران، أولئك الذين قال فيهم عز من قائل: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يقفهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولـئك كالأنعـام بل هم أضـل أولئك هم الغافلون﴾.

فصل

أعلم أن هذه الكلمة الشريفة شطران: أحدهما نفي، وهو قولك لا إلـه، والآخر إثبات وهو قولك إلا الله، فإذا صدر النفي معقباً بالإثبات، ممن لا يشرك مع الله إلهاً آخر، فمعناه نفي توهُّم من توهمَّ أن مع الله إلهاً آخر من المشركين والرد عليهم، وتقرير المعنى الحاصل في القلب من التوحيد، فإنه يتأكد بتكرار هذه الكلمة، قال رسول الله ﷺ: «جددوا إيمانكم بقول لا إلـه إلا الله».

وأيضاً فللشرك معان خفية دقيقة، لا ينجو منها إلا العارفون المحققون، والمكاشفون بصريح الحق من طريق العيان، وقد يقع المؤمن في شيء منها ولا يشعر مثل أن يعتقد أن أحدا غير الله، يجلب نفعاً أو يدفع ضرا بطريق الاستقلال، ومن ذلك شدة الحرص على الاستيلاء والاستعلاء على الخلق، ومحبة الاستقلال والاستيثار بالأمور، واشتهاء المنزلة والتعظيم والمدح في قلوب الخلق وعلى ألسنتهم.

وفي الحديث: «الشرك في أمتي أخفى من دبيب

النمل». وقد سمى صلى الله عليه وسلم الرياء الشرك الأصغر.

وقد يشرك الإنسان مع الله نفسه أوغيره من هذه الحيثية، وهو لا يدري، فعلى المؤمن أن يحترز من خفايا الشرك كما يحترز من ظاهره جهده.

ثم إن الشرك بهذا الاعتبار، لا يؤثر في أصل الإيمان الذي يدور عليه أمر النجاة، ولكنه يقدح في كماله.

وإنما قلنا في صدر الفصل: ينبغي للموحد أن يقصد بنفيه الإلهية عما سوى الله، الرد على من يتوهم ذلك من المشركين ونحوهم، وسمينا اعتقادهم الفاسد توهما، لأنه إنما ينشأ عن تصور فاسد ورأي ضعيف، يؤذن بتغير المزاج وفقد العقل، وإلا فكيف يخفى على ذي بصر وسمع، فضلا عن ذي بصيرة وقلب، وجود من ظهرت به الأشياء، وانفراده بها، ولكن من يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل، أولئك الذين ذهب الله بسمعهم وأبصارهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون.

ولله در القائل حيث يقول:

أيا عجبا كيف يعصي الإله	أو كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد
ولله في كل تحريكة	وتسكينه أبداً شاهد

قال بعض العارفين نفع الله بهم: من طلب دليلا على وحدانية الله، فالحمار أعرف بالله منه، ولولا الحرص على الإيجاز لأمور يعلمها الله، لأطنبنا في هذا الفن، إطنابا يبهر العاقل اللبيب، والله على ما أقول رقيب.

فصل

قــال العلمـاء المحققــون رضي الله عنهم: الإلـه هو المعبود بحق، والمعبود بحق، هو الخالق الرازق والخالق لكل شيء والرازق له هو الله تعالى، فهو الإلـه وهو المعبود وحده لا شريك له.

ومن المستحيل عقلا وشرعا أن يكون للعالم أكثر من إلـه، فما من إلـه إلا الله العزيز الحكيم، وفي الإشارة إلى كون ذلك محالا أعني أن يكون للعالم إلهان، قال الله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلـه إذاً لذهب كل إلـه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون﴾.

وما ادعى الإلهية مـع الله أحد كالنمرود وفرعون، لعنة الله عليهما ولا ادعيت لأحد كالكواكب والأحجار، إلا وأثر النقص والافتقـار والعجز والانقهـار، المقتضيـة للحـدوث والعبودية، ظاهر على المدعي لها من الآدميين، وعلى من ادعيت له من غيرهم.

والذي يظهر: أن المدعي للإلـهية مع الله، كان الحامل له على ذلك توهماً فاسداً وتخيلاً باطلاً، تولد من مشاهدة الاقتدار من نفسه، على بعض الأمور، يشير إلى ذلك قوله تعالى، فيما حكى عن الخليل عليه السلام حين حاجّه النمرود في ربه ﴿قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت﴾.

وفي التفسير: أنه أقام البرهان على احتجاجه الداحض، بإحضار رجلين فقتل أحدهما وترك الآخر، وفيما حكى سبحانه عن فرعون، حيث قال لقومه: ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون﴾ إشارة إلى ذلك أيضاً.

ولا يبعد أن يكون مثل هذين اللعينين، كانا يعرفان بطلان ما ادعياه، ولكن حملهما البطر والأشر على الجحود، وعلى ادعاء ما ليس لهما بحق، ووجدا لذلك موضعا، من سخافة المنقادين لهما والمذعنين لطاعتهما. قال الله تعالى في شأن فرعون: ﴿فاستخفّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾.

وبلغنا أنه حين طلب منه قومه أن يجري لهم النيل، حين حبس عنهم، خرج بهم ثم خلا عنهم وجعل يمرغ خده في التراب، ويسأل ويتضرع ويدعو الله، فعند ذلك أجرى الله

النيل بقدرته، استدراجا لعدوه، فقال فرعون عند ذلك لقومه: أنا الذي أجريته لكم، فبان بذلك صحة ما ذكرناه، وتحت هذه الكلمات أسرار لا يجوز إيداعها الكتب.

واعلموا أن الكلام في هذه الفصول، قد دخل بعضه في بعض ومعانيه متقاربة، ولم نذكر في جملتـه ما يتعلق بإعراب هذه الكلمة، وحكمها وفضلها بالقصد وليس من غرضنا التعرض للإعراب.

وحسبك من شرح الحُكم والفضيلة أن الكافر بهذه الكلمة، حلال الدم والمال، مخلد في نار جهنم أبد الآباد وأن الإنسان يعيش كافراً بالله سبعين سنة مثلا، فإذا قالها معتقداً لمعناها، عصم دمه وماله، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وأنه لو لقي الله تعالى عبد بذنوب الأولين والآخرين، ومـع ذلك لا يشرك به شيئاً، لكان يغفر له إن شاء وإن عاقبه بذنوبـه كانت عقوبة منقضية لأنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد، والموحد هو المعتقـد لمعنى هذه الكلمـة الشريفة.

وفي الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله». وفيه: «من كان آخر كلامه:

لا إلـه إلا الله دخل الجنة». وفيه: «وليس على أهل لا إلـه إلا الله وحشة في قبورهم، ولا في نشورهم، وكأني بهم وقد خرجوا من قبورهم ينفضون التراب من رؤسهم، يقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾. وفيه: «أنه يصاح برجل فتمد له تسعة وتسعون سجلا من الخطايا، كل سجل مد البصر فتطرح في كفة السيئات، فيقول الحق: إن لك عندنا حسنة، فتخرج له بطاقة مكتوب فيها: لا إلـه إلا الله فتطرح في الكفة الأخرى، فترجح بالسجلات كلها». الحديث بمعناه.

وقد ذكر الشيـخ ابن عطاء الله، في «مفتاح الفلاح» طرفا من فضل هذه الكلمة وما يلحق به.

ثم إن جميـع المنافـع والفوائـد المرتبـة على هذه الكلمة، في الدنيا والآخرة، لا يظفر بشيء منها من فرق بين الشهادتين، لأن حكمهما واحد.

ومن أقر بشهادة التوحيد وأنكر الشهادة للرسول، فليس من أهـل التوحيـد، والكلام فيمن يكفـر بالـرسول ويؤمن بوحدانية الله تعالى.

وأما المؤمن بالوحدانية والرسالة، فليس عليه بأس إذا قال: لا إلـه إلا الله ولم يتبعها بشهادة الرسول، ولا يفوته بسبب ذلك شيء من الخيرات المرتبة على هذه الكلمة،

فاعلم ذلك. وفي الباب فروع ودقائق، لو استقصيناها لضاق عنها مجلد ضخم. والمقصود الإشارة إلى شيء من معاني كلمة التوحيد.

تتمة

أعلم أن هذه الكلمة أجمع الأذكار وأنفعها، وأقربها إلى الفتح واستنارة القلب بنور الله، وأولاها بكل أحد، وذلك لتضمنها معاني جميع الأذكار، من التحميد والتسبيح وغيرهما، فينبغي لكل مؤمن أن يجعلها ورده اللازم، وذكره الدائم، ومع ذلك فلا ينبغي له أن يهجر بقية الأذكار، بل يجعل له من كل مَنها وردا.

ثم إن العبد لا يخلو من أن يكون سالكا أو واصلا أو غير سالك، فهم ثلاثة أقسام، وكلهم الأولى بهم الملازمة لهذه الكلمة.

أما السالك ومن ليس سالكا، فلأنهم ينظرون إلى الأشياء ويثبتونها من حيث هي وربما دخل عليهم بسبب ذلك، شيء من دقائق الشرك الخفي، فيحتاجون إلى نفيه عنهم، ولا يكون إلا بملازمة هذه الكلمة.

وأما الواصل فلأنه ينظر إلى الأشياء بالله، ويكون على الدوام مشغولا بدعوتها إلى الله تعالى، ولا يخلو في بعض

الأحيان من مطالعة نفسه، ومن خطرات تخطر له لا تليق بمقامه، فتكون هذه الكلمة لذلك أولى الأذكار به.

وقد بلغنا أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، كان يدخلها في كلامه، وكلما تكلم بكلمات يقول: لا إلـه إلا الله. ثم يرجع إلى كلامه، وهذا في مقام البقاء وهو بعد الفناء، فليس شيء أولى بالإنسان، أن يلازمه من الأذكار غيرها كما تقدم.

نعم إذا أشرف السالك على أوائل الفناء، وانمحى عن شهود جميع الأكوان فالأولى به حينئذ ملازمة الله الله، هكذا ذكره العارفون.

وهذا كله من حيث الأفضل والأولى، وإلا فجميع الأذكار طرق إلى الله موصلة.

وللمشايخ رضي الله عنهم، طرق في كيفية النطق بهذه الكلمة الشريفة وفي الجهر بها والإسرار، وفي الشرائط التي يحتاج إليها الذاكر بها من المتعرضين للفيض الإلـهي والفتح الرباني، وهي مشروحة في رسائلهم، فليطلبها من يريد أن يسير على سبيلهم.

ومن وجد في زمانه أحدا من المشايخ المحققين، فالأولى به أن يأخذ ذلك منه، فإن الكتب حيلة الفاقد، وإلا

فكم من فرق بين من يأخذ طريقه عن عارف محقق يسلك به إلى الله، وبين من يأخد طريقه من كتاب، والله الهادي إلى الصواب وإليه المرجـع والإياب والتوفيق منه وبيده.

فصل

وسألت عن الحضور المتكلف، ما معناه؟ (٢)

فاعلمأولاً أن الإنسان في أصل خلقته مفطور على خلو القلب، واستعداده لقبول كل ما يلقى إليه، مما يكون سبباً في صلاحه واستنارته أو سبباً في فساده وإظلامه، فأول شيء يلقى إليه رسخ فيه، وانتقش به انتقاشا، يحتاج في محوه إلى تكلف ومجاهدة.

والسابق إلى قلوب بني آدم، إلا من شاء الله منهم، المعرفة بأحوال دنياهم، وما يقع به قوامهم والتذاذهم فيها، وذلك أول شيء يسمعونه، ويرونه من أبناء جنسهم.

فإذا وردت على قلوبهم بعد تمكن هذه الأشياء منها معرفة الله ومعرفة حقوق ربوبيته، وطلب القيام بها كما ينبغي ويليق بالحضرة المقدسة، لم تجد في القلوب مستقرا ولا مستوطنا، فتبقى متزلزلة وغير ثابتة، فيحتاج لا محالة الراغب في رسوخ معرفة الله في قلبه، وأن يصير الحضور مع الله دأبه وشعاره، في جميع عباداته وسائر أحواله، إلى محو

ما سبق إلى القلب، من المعرفة بأحوال الدنيا المشغلة عن التجرد لهذا الأمر، والظفر به على وجه الكمال، ولا بد وأن يناله في ذلك مشقة ويحتاج فيه إلى رياضة ومجاهدة، قد يخف ذلك وقد يثقل، ويختلف باختلاف الفِطَر كمالا ونقصا، وباختلاف التوجهات والهمم قوة وضعفا، وباختلاف رسوخ الأمور المشوشة، فإنها قد تتمكن من القلب تمكنا بالغاً، وقد يكون دون ذلك.

وليس هذا الذي ذكرناه خاصا بالحضور فقط، بل هو عام في استجلاب جميع الأخلاق المحمودة التي هي مصادر الأعمال الصالحة، فإن المتخلق بها يحتاج في بدايته إلى الصبر والمجاهدة، ويأتي بها مع التعب والمشقة، ثم يفضي به الأمر إلى أن تصدر عنه مقرونة باللذة والراحة.

إذا علم ذلك فاعلم أن الحضور مع الله روح العبادات، وهو المقصود منها وبه يُعنى المحققون، وعليه يعول العارفون.

والأعمال التي تصدر من العبد مع الغفلة، يرونها إلى العقوبة والحجاب، أقرب منها إلى المكاشفة والثواب.

وطريق الوصول إلى الحضور مع الله في العبادات، أن ينظر الإنسان في الأمور المشوشة له فيدفعها، وهي قسمان: ما يرد من جهة الحواس كالسمع والبصر ودفعه بالخلوة،

وما يكون من قبيل حديث النفس، وتشويشها على القلب بوساوس وخواطر توردها عليه، ودفعها بالإعراض عنها.

واشتغال القلب، إما بأن تجري فيه صورة اللفظ الذي يجري على اللسان، من قرآن أو ذكر.

وإما بأن يجعل القلب مصغياً ومستمعاً إلى ما هو القائم باللسان من ذلك، والمعول عليه في هذه الحالة ضبط القلب وحفظه عن كل ما يرد عليه، من جهة النفس والحواس.

فإذا أحكم العبد هذه المرتبة، من تكلف الحضور، فلينتقل منها إلى ما فوقها وذلك أن يشعر القلب، ويقيم فيه معنى ما يكون جاريا على اللسان، وذلك كالتوحيد عند التهليل وكالتزيه والتعظيم عند التسبيح والتكبير.

وإن كان الذي يجري على اللسان قرآناً، فليكن على القلب معاني ما يقرؤه وهذا المذكور مرتبة في الحضور شريفة، وبعدها أشرف منها وهي أن يشعر القلب ويحضره، حين التلاوة والعبادة والذكر حضرة المعبود والمتكلم والمذكور.

وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه». ويحتاج من يريد الوصول إلى هذه المشاهدة العظيمة، إلى إحكام ما قبلها كما ذكرناه وإلى أن يكون في

غاية التنزيه للإلـه الحق عن مشابهة الحوداث، فـإن من لا بصيرة له ربما يتصور ذلك مقروناً بشيء من التخيلات، التي يتقدس الحق عن مثلها.

وفي هذه المرتبة التي هي مشاهدة المتكلم في كلامه، والمذكور في ذكره، تكون الغيبة والاستغراق والسكر والفناء، وما شاكلها من أحوال أهل الله.

فمن رغب في الوصول، فليسلك السبيل ويعانق الصبر والجد، ويشمر عن ساق الطلب بكل جهده وإمكانه، ويسمـع قول سيد الطائفة الجنيد رحمه الله، وقد قيل له: من أين لك هذه العلوم، التي لا توجد عند أحد من أشياخك؟ فقال: من جلوسي مـع الله تحت هذه الدرجة ثلاثين سنة، وأشار إلى درجة في بيته.

وكان الشبلي رحمه الله تعالى في بدايته يخلو بنفسه في سرب تحت الأرض، ويأخذ معه حزمة قضبان، وكلما داخلته غفلة ضرب بها نفسه فما يمضي المساء حتى تفنى تلك الحزمة من كثرة ما يضرب بها، فإن ماكـان أول ما صاروا إليه، من المكاشفات والمشاهدات مجاهدات ومكـابدات. وقـد يحصل ذلك بدون ما ذكرناه وهو نادر جداً.

ثم إن الواصل إلى رتبة الحضور مـع الله والأنس به، يصير يتكلف الحضور مـع الخلق، والخوضَ في شيء من

أمور الدنيا، عندما تدعوه إليه الحاجة، نظير ما يتكلفه أولا في طلب الحضور مع الله تعالى.

ومن أقوى ما يستعان به على حصول الحضور مع الله: أن يشعر العبد قلبه بأن الله يراه وإنه إنما ينظر إلى قلبه وباطن قصده وتوجهه، لا إلى جسمه وصورة ما يجري عليه من عمله.

ومن المشوشات للحضور عند العارفين: أن يكون الإنسان في صلاة أو ذكر فيشغل قلبه بغير ما هو فيه ولو من أمور الآخرة، إذ المعول عليه عندهم، هو أن يجتمع الإنسان بظاهره وباطنه على كل ما يدخل فيه لله تعالى، فإنه لا يحكمه ولا يأتي به على وجهه حتى يكون كذلك.

ومع غفلة القلب قد تفسد صورة العمل، فضلا عن معناه كما هو مشاهد. والعمل مع الغفلة وعدم تكلف الحضور لا يؤدي إلى الحضور، وإنما يؤدي إليه إذا كان مصحوباً بتكلفه، ولكنه لا يخلو من بركة.

قال رجل لأبي حفص إني أذكر الله ولا أجد حضوراً، فقال له: أحمد الله الذي زين جارحة من جوارحك بذكره.

فصل

(٣) **وسألت** عن معنى التنزيه والثناء وعن ما يعبر به عن الحول والقوة، وعن معنى الندم والاستغفار، وهل ذلك خاص بأهل الذنوب أم عام حتى في الترقي من مقام شريف إلى أعلى منه؟.

فاعلم أن التنزيه هو التقديس وهو التسبيح أيضاً، ومعناه: أن يعتقد القلب تنزيه الحق جل وعلا ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً عن مشابهة المخلوقين، فإنه المتقدس سبحانه المنزه عن الشركاء والأمثال وعن الحدوث والزوال، وعن الأعراض والعلل وعن التقيد بالزمان والمحل، بل هو المنزه عن أن يتصوره وهم أو يتخيله خيال، أو يظفر به فكر أو يدرك ماهيته عقل أو يحيط به علم.

وكثيراً ما وقع التسبيح في القرآن الكريم، متصلا بتنزيه الحق نفسه، عما أضافه إليه الملحدون، مما لا يليق بعز كماله، مثل قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ إلى قوله ﴿إنما الله إله

واحد سبحانه أن يكون له ولد﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً﴾ إلى قوله ﴿سبحانه عما يشركون﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون﴾ الآيات إلى قوله: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ إلى غير ذلك.

وأما الثناء فهو الحمد والمدح ومعناه: ذكر ما يستحقه الممدوح، من صفات الكمال وما هو متصف به من معاني العز والشرف والجلال، وما يفيض منه على المثني وغيره، من العطاء والنوال، وما يدفع عن المادح وعن سواه، من ضروب البلاء والأنكال مقروناً بالإعظام والإجلال.

ومن أجمع العبارات وأشملها لمعاني الثناء قول: الحمد لله.

واعلم أن الله تعالى هو المنزه على الإطلاق، والمستحق للثناء على كل وجه، وبكل معنى، وهو المنفرد بذلك والمتوحد به، لأنه المنزه عن كل نقص المتصف بكل كمال، المفيض لكل خير ونوال. فالتنزيه والثناء له حقيقة ولغيره مجازاً بل لا منزه ولا محمود سواه حقيقة ومجازاً.

فكل من أتى من الخلق شيئاً من النزاهة، أو وصل إلى شيء مما يقع عليه الثناء، فما وصل إلى ذلك بحوله وقوته، بل بقدرة الله ومشيئته وفضله ورحمته، وذلك من الله ولله.

ومن نزه مخلوقاً عما هو منزه عنه، فتنزيهه وثناؤه ومباعدته نقصٌ يعتور أبناء جنسه، أو أثنى عليه بكمال هو متصف به فتنزيهه وثناؤه تنزيه لله وثناء على الله، عَلِمَ ذلك من عَلِمَهُ وجهله من جهله.

واعلم أن الله تعالى غني عن تنزيه المنزهين، وعن ثناء المثنين، فإن المنزه له سبحانه لم يدفع بتنزيهه عنه نقصا، إذ لا نقص ولا يتصور وجوده.

والمثني عليه تعالى لم يثبت له بثنائه كمالا، فإن الكمال لله أزلا وأبداً، وإنما تنزيه العبد لربه وثناؤه عليه نفع يجره إلى نفسه، وخير يوصله إليها، وقد وعده الله ذلك بفضله، قال ﷺ: «الحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض». الحديث.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها».

وما ورد في فضل التسبيح والتحميد، أكثر من أن يحصر، وأشهر من أن يذكر، ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين.

فصل

وأما ما يعبر به عن معنى التبري عن الحول والقوة، فاعلم أن أجمع العبارات عن ذلك وأشملها، قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال حجة الإسلام رضي الله عنه: الحول هو الحركة والقوة هي القدرة، ولا حركة ولا قدرة لأحد من الخلق على شيء من الأشياء، إلا بالله القوي القادر وكلما جعل الله للمخلوقين إلى فعله أو إلى تركه سبيلا، كالقيام بالتكاليف فعلا وكفّاً، وكالسعى لطلب المعاش بأنواع الحركات من الحرف والصناعات، وما في معنى ذلك. فالواجب على المؤمن، أن يعتقد أن الله تعالى، هو الخالق المخترع لإرادتهم وقدرتهم وحركاتهم، وإنما لما يصدر عنهم من الأفعال الإختيارية، نسبة إضافة إليهم، تسمى الكسب والعمل، عليها يترتب الثواب والعقاب، ولكنهم ما يشاؤن إلا أن يشاء الله ولا يقدرون على فعل شيء ولا على تركه، إلا إن أقدرهم الله و ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. وما لهم فيهما من شرك، وما له منهم من ظهير.﴾

وعلى القدرة والاختيار الذي جعل الله لعباده يترتب الأمر والنهي، فللأمور الصادرة عنهم بالقصد مع الاختيار، نسبة وإضافة إليهم وبحسب ذلك يثابون ويعاقبون.

فمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله، نفي الاستقلال، والاستبداد بالقوة والحول مع الاعتراف بوجود القدرة والاختيار اللذين جعلهما للعبد، فإن من زعم أنه ليس للعبد اختيار ولا اقتدار على شيء، وأن أفعاله الاختيارية كالاضطرارية، وأنه مجبور في كل حال، فهو مبتدع جبري، وقد أبطل بزعمه الفاسد فائدة إرسال الرسل، وإنزال الكتب.

ومن زعم أن الإنسان يستقل بمشيئته وقدرته على أفعاله الاختيارية، فهو مبتدع معتزلي.

ومن اعتقد أن للإنسان المكلف قدرة واختياراً، يقدر بهما على امتثال ما أمره الله به وعلى اجتناب ما نهاه عنه، وأنه ليس مستقلا بذلك ولا خالقاً له فقد أصاب السنة ودخل في الجماعة وسلم من البدعة، ولهذا شرح طويل وهو سبيل وَعْرٌ قد تخبط فيه وضل عنه خلق كثير، وتحته سر القدر الذي حارت فيه الألباب، وأمر بالإمساك عن الخوض فيه سيد المرسلين.

فليقنع العاقل بالإشارة، وليكفه من ذلك أن يؤمن أن كل شيء خلقه الله، وأنه لا يكون كائن بدون مشيئته وقدرته،

ثم ليطالب نفسه بامتثال الأوامر واجتناب المحارم وليقم الحجة لربها عليها على كل حال.

وفي الحديث: «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة». فافهم الإشارة في كونه كنزاً تعلم أن معناه من الأشياء الخفية الغامضة، فإن الجزاء من جنس العمل كما قال ﷺ: «ركعتان في جوف الليل كنز البر» فجعل ثوابهما كنزاً مخفياً لوقوعها في وقت بهذه المثابة وهو الليل.

وورد أيضاً: «لا حول ولا قوة إلا بالله دواء من تسعة وتسعين داء، أدناها الهم». وإنما كانت دواء للهموم، لأنها إنما ترد غالباً عند فوات محبوب أو حصول مكروه فيستشعر الإنسان عند الفوات وحصول ما يكره عجزه وضعفه، عن الوصول إلى ما يشتهي فيهتم لذلك، فإذا كرر على قلبه ولسانه معنى التبري من الحول والقوة، أنتج له ذلك يقيناً، يعلم به أنه عاجز وضعيف، إلا إن قواه الله وأقدره، فيذهب إذ ذاك همه وتتسع معرفته بربه.

ويتضح هذا المعنى من قوله عليه الصلاة والسلام: «من آمن بالقدر ذهب همه». وفي إضافة الحول والقوة إلى اسمه «الله» الذي هو قطب الأسماء ورئيسها، وإتباعه غالبا بالاسمين الكريمين، الدالين على صفتين من صفات الذات المقدسة العلو والعظمة، إشارة إلى نهاية التنزيه وغاية

التقديس عن أوهام توهمها من ضل السبيل وعمي عن الدليل وخاض في سر القدر، وفي حركات العباد بدون بصيرة فتنبهوا لذلك.

فصل

وأما الندم فهو رجوع القلب مع التحسر والتأسف، عن شيء قد كان همّ العبد به، مما يسخط الله تعالى فعله كالمعاصي أو تركه كالفرائض، وقد يقع على الانهماك في المباحات، وعلى التأخر عن نوافل القربات.

والندم الصادق ما حمل على مجانبة التقصير وملازمة التشمير وعند صحته يكاد يتضمن جميع شرائط التوبة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «الندم توبة». والذي يندم على إتيان القبائح مع الملابسة لها متلاعب لا يغني عنه ندمه شيئاً.

وأما الاستغفار فهو طلب المغفرة من الله وهو الستر على الذنوب، وإذا تفضل الله بغفران ذنب لم يفضح به صاحبه ولم يعاقبه عليه لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وأشرف أنواع المغفرة أن يجعل الله بين العبد ستراً من الذنوب حاجزاً بينه وبينها حتى لا يقع في شيء منها، ويسمى هذا الستر بلسان النبوة: عصمة وبلسان الولاية:

حفظا، وإليه يرجع معنى قوله تعالى لسيد المعصومين عليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ وقوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾.

ومن المعلوم أن الذنب لا يصدر منه ولكن ذكّره نعمته عليه بعصمته مما يبعده منه، وأمره أن يدعو بذلك، فإن الدعاء في هذا الموطن يرجع إلى الشكر، والشكر سبب المزيد ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ والله أعلم.

دَقيقَـــة

اعلم أن الطاعة وإن كـانت هي الطريق إلى الله، والوسيلة إلى القرب من حضرته المقدسة، قد يداخل العاملين بها من أهل الغفلة أمور معدودة من كبائر الذنوب وذلك كالرياء والعجب، والتكبر بها على العباد، والإدلال بها على الله ونسيان منّته في التوفيق لها، وما يجري هذا المجرى.

وهذه الأشياء قد تنتهي بالمطيـع إلى إحباط أصـل الثواب، وربما استوجب مـع ذلك أليم العقاب.

والمؤمن المعول على طريق الحـزم الحريص على حصول النجاة، لا يفارقه الاتهـام لنفسه وسـوء الظن بهـا فهو يستغفر بإزاء الطاعات، وإن لم تكن له صور المخالفات، مخافة أن تكون نفسه قـد دهته بشيء من هـذه الدواهي المهلكات، فقد عرفت بهذا موقـع الاستغفار من الطاعات.

وأمـر أدق من هذا يقـع لأهـل المعرفـة في بعض الحـالات، وهو أنهم إذا آنسـوا من نفـوسهم ركـونـاً إلى

الصالحات من أعمالهم أو أنساً بها أو اعتماداً عليها يرجعون إلى الله بالتوبة والاستغفار.

وهذه الأشياء بعينها قد تطرقهم عند منازلات المقامات الشريفة، والأحوال الواردة فيتوبون عنها ويستغفرون منها.

ولذلك كانت الذنوب عند أهل الله المتجردين عن علائق الأكوان، الالتفات إلى غير الله كائن ذلك الغير ما كان، فتراهم يفزعون إلى الله ويفرون إليه من أحوال لو وردت على غيرهم كان يعدها من أعظم القربات وذلك كخواطر الرجاء بإزاء الطاعة، وخواطر الخوف وخواطر الزهد، وافْهم هاهنا قولهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ولولا اندراس الطريق وأفول أنوار التحقيق لكنا نأتي من ذلك بالعجب العجاب، فتذكروا يا أولي الألباب.

قال الشيخ شهاب الدين السهروردي رحمه الله: وللمقامات قوادح قد تدخلها دواخل، لا يكاشف بها العارف في حال الإقامة بها. وإنما يتبينها إذا ارتقى من مقام إلى ما هو أعلى منه. فعند ذلك ينظر إلى الأول وقد حصل له من الثاني زيادة تبصرة فيرجع إلى الذي فارقه فيصلحه ويجبر تقصيره فيه، ولا يكون ذلك إلا بالتوبة والاستغفار، وهذا معنى كلامهم مع مزيد شرح وإيضاح.

وقد تأول بعضهم قوله عليه الصلاة والسلام: «إنه لَيُغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم سبعين مرة»، بنحو ما ذكره السهروردي، وهو بعيد المناسبة للمنصب المحمدي، الذي تندرج فيه جميع الكمالات الحقية والخلقية. وعندي له تأويل لا أسمح بذكره إلا مشافهة لأهله، والله أعلم.

فصل

(٤) **وسألت** عن قول بعض أهل الطريق: ينبغي لمن يأخذ من أيدي الخلق، أن يكون أخذه من الله كشفا وذوقا لا إيمانا وعلما. فما كيفية ذلك، من حيث العلم به؟

فاعلم أن هذا كلام عارف أخبر عن حاله، وعبر عن شهوده وهو حال الفاني عما سوى الله، المستغرق بمشاهدة جلال الله وجماله، الذي لم يبق عنده من الخلق خبر، ولا من الوجود وأهله حس ولا أثر، قد سُلب التدبير والاختيار، وغاب عن مشاهدة الآثار، وغرق سره في لجة بحر الأسرار، وانمحت عنه ظلمه ليل الوجود، بإشراق نهار الشهود، فتراه مع ربه كالميت مع غاسله لا يتحرك إلا بتحريكه، وقد غاب عن الأسباب برؤية مسبب الأسباب، وفني عن الأغيار بمشاهدة فعل الفاعل المختار. فهو كما قال بعض العارفين الأخيار:

لله در فتى حيران ذا وَلَه ... أفنى مسماه مولاه وأسماه
يمضي الزمان ولا يدري بعدته ... يستف من رائق العذري حمياه

فصاحب هذا الحال مغلوب بمشاهدته، ومحكوم عليه

لا يستطيع خروجا عن حكم الوارد، فما وقع منه في حاله ذلك فالله وليه فيه، وهو حافظه حتى إن الصادق في هذه المواطن، لا يلابس شيئاً مما يناقض وصف العبودية، وإن كان إذ ذاك خارجا عن عهدة التكاليف، لفقد التمييز الذي هي منوطة به.

وللمتحققين رضي الله عنهم حرص بالغ على ورود هذا الوارد ودوامه، لما فيه من مفارقة الرسوم ومحو أوصاف البشرية التي هي الحجاب عن مشاهدة الأسرار الإلـٰهية.

واعلم أن هذا الحال إذا ورد لا يدوم، وإن دام ظهرت على العبد أمور عجيبة وقد ينتهي به الأمر إلى الاضمحلال والانمحاق، وهو اختصاص إلـٰهي يختص الله به من يشاء، لا يدرك بالأماني وتسويلات النفس.

وللإنسان سبيل إلى التعرض لذلك بحسن الرياضة وصدق المجاهدة، على موافقة الكتاب والسنة.

والمتكلف للتحلي بهذا الحال، المتصف بأوصاف أربابه مغرور مأزور، لأنه يقع بسبب ذلك إلى الإخلال بحقوق الله وحقوق العباد، وذلك لأن صاحب الفناء لا يتصور منه حب ولا رجاء، ولا خوف لأحد من الخلق ولا يشكر ولا يكافيء أحداً منهم على معروف يصل إليه منه لأنه ما يرى إلا الله، إلى غير ذلك من أوصاف الفاني بالله.

واعلم أن الفاني يرى الله، ولا يرى الخلق.

وصاحب البقاء ولا بقاء إلا بعد التحقق بالفناء، يرى الأشياء بالله فيوفي كل ذي حق حقه، ويضع كل شيء في موضعه، ويقوم أتم القيام بالحقوق الحقية والحقوق الخلقية، ولا يشغله ذلك عن ربه ولا يحجبه عن مقامه.

وقد يقع لصاحب الفناء بوارق من البقاء، ولصاحب البقاء طوارق من الفناء، وحاله ما هو الغالب عليه، فترى رجالا من الواصلين إلى حال البقاء تحكى عنهم أشياء تشهد للاستغراق والفناء، مثل ما بلغنا عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، أنه قال مرة في مجلس: نحن لا نحب إلا الله.

فقال له قائل: إن جدك عليه الصلاة والسلام يقول: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها.»

فقال الشيخ: نحن لا نرى محسناً إلا الله، فإن كان ولا بد فكالهباء تحسبه شيئاً، فإذا فتشته لم تجد شيئاً، يريد أن رؤيته للخلق بهذه المثابة.

والتعبير عن ذوق من لا يرى إلا الله في العطاء والمنع عسير، ولا تكاد العبارة تقع عليه، ولكن يُستدل على صاحب هذا المقام بالعلامات الظاهرة.

والمعول عليه، والذي لا بد منه في الأخذ من أيدي

الخلق، استعمال العلم والأدب ظاهراً وباطناً. أما العلم الظاهر فهو أن لا تأخذ إلا ما يسوغ لك أخذه شرعاً، وأما الباطن فهو أن لا تأخذ شيئاً وأنت عنه في غناء إلا بنية إخراجه، ولا شيئاً استشرفت إليه النفس.

ومعنى الاشتشراف: أن ترجوه وتطمع فيه من موضع معين، وهذا من الآداب الباطنة والتزامها فضل. والواجب من باطن العلم أن تؤمن يقينا أن الله تعالى هو المعطي حقيقة، فإنه هو الرزاق لذلك المعطي، والآمر له بالإعطاء والمجازي له بما هو أجل وأفضل من عطائه، وهو الذي سلط على قلبه البواعث القاهرة، التي لا يستطيع لها خلافا، وهو الذي زين له البذل وأخطرك على باله، وألقى في نفسه أن الخير والمنفعة في الاصطناع إليك، فما أحسن إلا إلى نفسه.

فقل لي: هل يبقى مع استشعار هذا الأمر من العلم بالله، نظر إلى الخلق أو وقوف معهم؟ ومع هذا كله، فلا تغفل عن شكر المحسنين وموادتهم والدعاء لهم، من حيث إنه سبحانه أمر بذلك، وما جعلهم محلا للمعروف، وموضعا للخير وواسطة بينه وبين عباده، إلا وهو يحب لهم ذلك، ويحب معاملتهم به وشُكْرُكَ إياهم شكر لله عند التحقيق.

فقد علمت بما قررناه، حكم الآخذ من أيدي الخلق بالنسبة إلى أهل الفناء وأهل البقاء وأهل السلوك، فتمسك به واعمل عليه.

دَقيقَــة

قال صاحب قوت القلوب رحمه الله ونفـع به: إذا صادفت لمعروفك أحداً من أهل اليقين، الذين لا يرون إلا الله فاغتنم اصطناع المعروف إليه. وإن كان حاله يقتضي أن لا يشكر أو لا يدعو لك لكونه لا يراك، فإن يقينه أنفـع لك وأرجـح في ميزانك من دعاء غيره وشكره. انتهى بمعناه.

(٥) **وأما** ترتيب سورة الواقعة، وقد سألت عنه؟

فاعلم أنه ورد: أن قرائتها كل ليلة أمان من الفاقة، وهي الحاجة إلى الخلق، أعنى حاجة تشين الإنسان في دنياه ومروءته.

وقد قيل لابن مسعود رضي الله عنه عند موته: تركت أولادك فقراء، فقال: ما منهم أحد إلا وقد أعطيته كنزاً، وهو سورة الواقعة.

وخواص السور والآيات القرآنية والأذكار والأدعية النبوية أمر غير مجهول وكتب السنن طافحة به.

وقد ألف الإمام الغزالي في ذلك كتاباً سماه: «الذهب الإبريز في خواص الكتاب العزيز».

وليس في ترتيب الواقعة ونحوها، لجلب المنافع ودفع المضار الدنيوية ما يقدح في عمل ولا نية، نعم لا ينبغي أن يكون الباعث على قراءتها مجردا من المقاصد الدينية.

وللعبد في التحرز من الحاجة إلى الناس ـ إذا عقل ـ أفضل نية، فإن المؤمن الفطن لا يقصد بالاستغناء عن الناس وبالسلامة في النفس والأهل، وما شاكل ذلك مما يقترن به من الراحة واللذة الصورية، بل يقصد به الخلاص من آفات تضر بالدين، وقد تظهر على كثيرين من المبتلين بشيء من هذه البليات.

ومن ثم اشتد حرص الأكابر، على سؤال العافية من الله المعنوية والحسية وذلك خوفاً من أنفسهم، لما هي مجبولة عليه من الضعف والتزلزل عند ورود الأشياء المنافرة لها.

وقد تكرر من الرسول ﷺ الاستعاذة من الفقر والأمراض وقال: «كاد الفقر أن يكون كفرا»، لما يتهدف له المبتلى به، من التبرم بالقضاء والسخط للمقدور والجزع.

قال سفيان الثوري رحمه الله: ما أجزع من البلاء لأنه يؤلمني، ولكن أخشى أن أبتلى فأكفر.

ثم إن كمال العبد في رضاه باختيار ربه له واكتفائه بعلمه، واعتنائه باختياره وتدبيره عن تدبير نفسه واختيارها.

دقيقة

قال بعض العارفين: في ترتيب سورة الواقعة سر يرجع إلى تنمية اليقين، الذي يقارنه سكون القلب وتصحبه

الطمأنينة في حال الوجد والعدم، وذلك لأن الله افتتحها واختتمها بذكر المعاد، وتفاوت الناس يومئذ.

ومن تدبر ذلك الأمر أذهله عن كل ما يخطر له من أمور الدنيا، وأيضاً فإن الله ذكر فيها أصل الخلق، وأنه ابتدأه من نطفة إذا تُمْنَى، وأصل الحرث والماء اللذين بهما يكون القوام فحث على التفكر في ذلك، وعرَّف الكافة بعجزهم عن الخلق، وعن تنمية الحرث وحفظه وعن إنزال الماء، وفي ذلك أبلغ تعريف بشأن القدرة الإلـٰهية والمشيئة والعلم الأزليين.

فإذا انضم العلم بذلك إلى العلم بضمان الله وتكفله لعبده برزقه وما يقوته سكن قلبه وأقبل على عبادة ربه. والله أعلم.

تَبْصِرَة

(٦) ربما داوم الإنسان على قراءة شيء من السور، وواظب على شيء من الأذكار والأدعية، الموعود عليها شيء من المنافع الحالية فلم ير لذلك أثرا، فلا ينبغي لمن وقع له ذلك أن يتشكك في صحة ما وقع به الوعد الصادق.

والذي ينبغي له أن يرجع على نفسه باللائمة وينسبها إلى التقصير في يقينها وتوجهها، فإن القاريء والذاكر، لا يسمى قارئاً وذاكراً على الإطلاق الشرعي، إلا باجتماع شروط فيه، يقصر عن القيام بها أكثر الناس.

والعمدة في تأثير هذه الأشياء وحصول الجدوى بها، تيقن القلب بأن ما ذكر كما ذكر، من غير تشكك ولا قصد تجربة، وصدق التوجه واجتماع الظاهر والباطن على الدخول في ذلك الشيء، وامتلاء القلب بخالص حسن الظن بالله وكمال الحضور معه.

فقلَّ أن تجتمع هذه الأشياء في متوجه بشيء من الآيات والأذكار في حصول شيء، أي شيء كان، إلا ويكون

مطلوبه كأنه طوع يده وتحت حكمه وتصرفه، فلا يلومن عبد قعدت به همته وأخره جده وتشميره إلا نفسه، وما الله بظلام للعبيد.

فصل

(٧) **وسألت** عن شخص إذا حضر السماع، يحس بروحه كأنها تضطرب وينالـه بسبب ذلك شيء من التعب، فما الأنسب له: حضور السماع، أو عدمه؟

فاعلم ـ علمك الله ـ أن أمر السماع خطر، حتى قال سيدي القطب الرباني العيدروس عبد الله بن أبـي بكر رضي الله عنه ونفـع به: إن هذاالسماع يهدي الله به واحدا ويضل به ألفا، أو كما قال.

فالذي لا بد من بيانه أن للأثر الحاصل من السماع، حكم الباعث عليه، فينبغي أن يكون الباعث من الحق، سالما من مزج الشهوة والهوى، وأن لا يسمـع إلا ما يجوز الاستماع إليه في حكم العلم، وأحمد أثرٍ تحصَّل من السماع شيء يحصل من استماع القرآن والسنة والمواعظ الحسنة.

والأثر الحاصل من استماع الأشعار والأصوات الحسنة والنغمات الموزونة محمود أيضاً، إن تعلق بأمر الدين، وإلا فهو مباح ولا بأس باستمـاعها على هـذا الوجـه بشرط أن

لا يكون في ذلك خروج عن المباح. وقـد قصدنـا بهذه الكلمات المجملة إيناس الطالب، وإلا فكتب القوم طافحة بشرح حكم السماع، خصوصا الإحياء والعوارف منها.

وأما الشخص الذي يحصل له ما ذكر، فإن كان يخشى مـع ذلك مراءاة للخلق أو تزينا لهم، فترك الحضور أنسب له.

وإن كان لا يخشى ذلك ولكن لا يحصل له بالسماع فائدة، من إنهاض همة أو نشـاط في عبادة أو شـوق إلى مشاهدة، ونحو ذلك، فعدم الحضور أحسن له أيضاً، لأنه لا يسوغ للإنسان أن يتعب نفسه لغير مصلحة.

وإن كانت تحصل له فائدة وتناله منفعة في دينه، فليزن ذلـك بمـا يحصـل لـه من التعب ويكـون مـع الأرجـح والأصلـح.

وبالجملة فالعارفون لا يرون لمتاعب الأجسام وآلامها قدراً مع منافـع القلوب وفوائدها، لأن حاصل طريقهم تنقية القلب وعمارته، ومطمـح نظرهم، فيما يجمـع قلوبهم على مولاهم عز وجل فاعلم ذلك، وبالله التوفيق.

فصل

(٨) **وسألت** عن معنى قول الإمام حجة الإسلام شرف الأئمة المهتدين وأستاذ الأكابر المحققين محمد بن محمد بن محمد الغزالي، قدّس الله سره العزيز وأعاد علينا من بركاته الشاملة، آمين. قوله: العلم بالشيء مغاير للعلم بالعلم بذلك الشيء؟.

فاعلم أن هذا الكلام واضح، ونضرب للتعريف به مثلا حتى يعقل، مثال ذلك إنك تعلم أن الله هو الذي خلقك وخلق كل شيء. هذا هو العلم بالشيء ثم تعلم إنك تعلم بخلق الله لك فهذا هو العلم بالعلم، وهو غيره. وقد يتصور انفكاك أحد العلمين عن الآخر.

وقال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك نائم فأيقظوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فأرفضوه.

(٩) **وسألت** عن قول الغزالي أيضاً: العلم يثمر الحال والحال يثمر المقام. هل ذلك مقرر، بل قد يفهم من كلام غيره خلاف ما ذكره؟.

فاعلم أن كلام حجة الإسلام رحمه الله، في ذلك هو العمدة. ولو خالفه مخالف لم يعتد به.

وبيان ما قاله رحمه الله تعالى، تعرفه بشرح مقام من مقامات اليقين حتى تقيس عليه غيره من المقامات.

فاعلم أن الزهد من المقامات الشريفة، وأصله أن يعلم الإنسان بما ورد في الكتاب والسنة وكلام صالحي الأمة في ذم الدنيا وتقبيح حال الراغبين فيها، وذكر فضيلة الراغبين عنها المقبلين على الآخرة فيقع في قلبه إن أدركه التوفيق أثر يقتضي الزهد في الدنيا والرغبة في العقبى. فالأول العلم، وهذا الأثر هو الحال. ويظهر على الجوارح بواسطة هذا الأثر أعمال تدل عليه، من الإعراض عن عمارة الدنيا وجمع حطامها وملازمة ما ينفع في الآخرة من الأعمال الصالحة، إلى غير ذلك.

ثم إن هذا الأثر تعرض له عوارض من وساوس الشيطان والنفس، فيما يدعو إلى الرغبة في الدنيا فيحول ويتزلزل ويطرأ عليه ضعف، وربما ينمحي في بعض الأحيان ولذلك يسمى حالا. فإذا رسخ وتأكد ورست قواعده في القلب فلم

تؤثر فيه خواطر الرغبة ولم تزلزله البتة، فعند ذلك يسمى مقاماً، فقد عرفت بهذا أن العلم يثمر الحال والحال يثمر المقام.

وللحال والمقام أمارات وعلامات، تدل على صحتها وسقمها، تجري على الظاهر وتسمى العمل وهو ينشأ أيضاً عن العلم، غير أنه يتعلق بالظاهر، فيفرق بينه وبين الحال بذلك.

وقد ذكر صاحب العوارف أن الأحوال بدايات المقامات، وأن من رسخت قدمه في شيء من مقامات اليقين، يكون له حال من المقام الذي هو أعلى منه، فاعلم ذلك.

ثم إن الأحوال قسمان أحدهما ما تقدم ذكره والآخر ما يرد على القلب المشرق بأنوار الرياضة والمجاهدة من الواردات الشريفة كالأنس والغيبة والسكر والجمع، وهذا القسم من الأحوال لا تثمره العلوم، ولكن تثمره التوجهات الخارقة في قوالب المعاملات الخالصة والنيات الصادقة، ولم يرده الإمام بقوله ذلك والأحوال التي يجري ذكرها كثيراً على لسان القوم المراد بها القسم الثاني منها، والله أعلم.

(١٠) **وسألت** عن قوله أيضاً: لا يكفي في فعل الطاعات العلم بكونها طاعة فقط، بل لا بد مع ذلك من معرفة الوقت

والترتيب والشرط فالوقت هو الزمان المعين المحدد المأمور بفعلها فيه.

والترتيب هو الإتيان بها على الوجه المأمور به، من تقديم ما يجب تقديمه وتأخير ما يجب تأخيره كالطهارة والصلاة لا يصحّان بدون الترتيب، وهو واجب في الطاعات التي يتصوّر وجوده فيها، وحكم الوقت والترتيب ظاهر.

وأما الشرط فيقرب أنه أراد به علم ما يتوقف فعل الطاعات عليه أو كمالها. ومثال ذلك أن العقل شرط في صحة الإيمان والإسلام، وهما شرط في صحة القيام بالواجبات والانتهاء عن المحرمات والتقرب بنوافل الطاعات والإخلاص لله، وتصفية النية من شوائب الرياء شرط في الانتفاع بالجميع في الدار الآخرة، والله أعلم.

(١١) **وعن قوله**، رضي الله عنه، في الخواطر، من حيث المؤاخذة بها، وهو أمر واضح.

وبيانه على سبيل الإجمال، أن الخاطر ما دام متردداً خيراً كان أو شراً لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب حتى يقع الجزم والتصميم فعند ذلك تتوجه المجازاة عليه من جنسه، وأما نسبة كلامه في الخواطر التي هذا حكمها إلى كلامه الذي أورده في آخر كتاب الخوف، وذلك أنه ذكر هنالك، أن صفات باطن الإنسان المخلط من الكبر والرياء والحسد

ونظائرها، تنجلي له بعد الموت في صورة منكرة يعذب بها. وهذا حكم من خرج من الدنيا من قبل أن يزكي باطنه من هذه الخبائث.

فإن كان الذي أشرت إليه من كتاب الخوف أردت به هذا المذكور فلا إشكال، فإن الخواطر شيء يقع في النفس ثم يتردد في الصدر، إلى أن يبلغ غايته وقد يضمحل قبل ذلك.

وهذا الذي في كتاب الخوف، إنما أشار به إلى الصفات المهلكات التي يضمرها الإنسان ويصر عليها وهي من أقسام الكبائر الباطنة، وتقع عليها المؤاخذة العظيمة عاجلا وآجلا فشتّان بين صفات القلوب وبين الخواطر التي تخطر فيها.

فإن كنا قد أصبنا ما في نفسك بما ذكرناه من البيان، فللَّه الحمد وإلا فانقل إلينا الكلام الذي أشكل عليك من كتاب الخوف بعينه، حتى نوضحه لك، بعون الله.

(١٢) **وسألت** أيضاً عن قول الإمام الغزالي في (كتاب أسرار التلاوة)، اللسان واعظ والعقل ترجمان والقلب هو المتأثر.

وهذا الذي قاله واضح فاللسان وظيفته القيام بالألفاظ المتضمنة للمعاني، والعقل يصغي إليها فيأخذ المعاني التي بها يقع التأثير فيلقيها إلى القلب المتأثر، فإنه وزيره والقائم بتدبيره فهو لتوسطه بين القلب واللسان في مثل هذا الموطن يسمى ترجماناً.

وهذا الذي ذكره يكون لأصحاب اليمين، الذين ترد عليهم المعاني عند التلاوة وبعدها.

وأما المقربون الذين ترد عليهم المعاني قبل التلاوة، وذلك لأن معاني التلاوة قد رسخت في قلوبهم ومازجت حقائقهم، فهي على الدوام حاضرة لديهم، سواء كان اللسان تالياً أو غير تالٍ.

(١٣) **وسألت** عن قوله أيضاً فيمن يستعين بنعم الله

على معاصيه: إنَّ تمني زوال النعمة عنه لا يكون من قبيل الحسد، بل هو من قبيل الغيرة لله تعالى.

فاعلم أن الحق ما ذكره رحمه الله ولكن لو جعل الإنسان مكان تمني زوال النعمة عن العاصي، سؤال الهداية له والتوفيق لشكر ربه، ووضع النعمة حيث يحب لكان أحسن.

ومن الأول ما يحكي عن ذي النون رحمه الله، أنه نظر في البحر إلى زورق فيه جماعة يريدون بعض الأماكن وقصدهم أن يشهدوا على بريء بالباطل ومجانبة الحق، فدعا الله عليهم فغرقوا فلما قيل له في ذلك، قال: شهادة البحر خير لهم من شهادة الزور.

ومن الثاني ما حكي عن معروف الكرخي رحمه الله، أنه مرّ هو وأصحابه على شاطيء الدجلة فنظروا إلى عصابة من الفساق راكبين في سفينة وهم مشتغلون بالشراب وأنواع اللهو، فقال أصحاب معروف له: يا أستاذ ادع الله عليهم فرفع يديه وقال: اللهم كما فرّحتهم في الدنيا ففرّحهم في الآخرة فقال له أصحابه في ذلك فقال: إذا فرّحهم في الآخرة تاب عليهم فلم يلبثوا أن جاءوا إلى الشيخ تائبين.

وهذا الذي فعله معروف أكمل وهو وصف الرحماء من أهل الله وخاصته والمكاشفين بوصف الجمال.

والذي ذكره الإمام مقام شريف في الغيرة لله، ويغلب على من مشهده الجلال من الخاصة.

واعلم أن الغيرة قسمان: أحدهما أن يغار الإنسان لربه إذا هتكت محارمه وضيعت حقوقه ويسمى الغضب لله أيضاً، وعنه يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبغض الظالمين والدعاء عليهم، كما وقع ذلك لنوح وموسى عليهما السلام.

والثاني من القسمين: غيرة الإنسان على شيء يختص به، لا يقبل الشركة كالزوجة ونحوها وقد تفرط هذه الغيرة بالإنسان، حتى يتهم من ليس بمتهم ويكره أن يشاركه غيره في شيء لا يضيق بالمشاركة، كالعلم والعبادة والشرف والرفعة وربما يبغض ويحسد من صار له من هذه الأشياء نصيب، وهذا ليس من الغيرة المحمودة في شيء.

وأما غيرة الله تعالى، فمعناها أنه يغار سبحانه على عبيده أن يعبدوا غيره وأن يقعوا في معصيته ومخالفة أمره، ويغار أيضا عليهم أن يشاركوه في صفاته الخاصة كالكبرياء والعظمة والعلو والعزة فإن هذه الصفات وما في معناها لا تليق إلا بالله الملك الحق الجبار لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

فصل

(١٤) **وسألت** عن شيء يتعلق بالرؤيا من كلام السيد الأكمل زين العابدين على ابن عبد الله العيدروس رحمه الله؟.

فاعلم أن الرؤيا من أجزاء النبوّة ولها عالم يخصّها وهي برزخ بين الكشف الباطن واليقظة الظاهرة.

وأول ما يُبدأ بها الولي كما وقع ذلك للرسول عليه الصلاة والسلام في أول الأمر ولكن ما كل أحد تقع رؤياه بهذه المثابة وقلّ أن تصدق رؤيا لأهل التخليط.

وصدق اللسان وسلامة التخيل والتوهم من التخيلات والتوهمات الفاسدة شرط في صدق الرؤيا واستقامتها.

وقد يتفق للمخلطين شيء من الرؤيا الصادقة، ولكن يضيف الشيطان إليها ما يزيد عليها من الأمور الفاسدة، فيشتبه عند التعبير صحيحها بفاسدها.

ومن كان الشيطان متحكماً عليه في يقظته وهو مع ذلك يسمع ويعقل فهو في نومه الذي تذهب به إدراكاته أشد تحكماً فيه.

ولا يؤثر في الرؤيا شيئاً نقص جسم الإنسان إذا كانت إدراكاته الباطنة سليمة، نعم إذا غلب على الإنسان مرض قوي أو شيء من الأخلاط الطبيعية خصوصاً البلغم والسوداء منها فقد تتخلط الرؤيا وربما رأى الشيء على خلاف ما هو عليه.

وذكر الإمام الغزالي رحمه الله أن الذي يحدّث نفسه بالأمور المحالية، ويشغل لسانه بما لا خير تحته من الكلام وكذا الذي يعتقد الأشياء ويراها أو يريها غيره على خلاف ما هي به قلّ أن تصدق له رؤيا، فاعلم ذلك وتأمله حقه فإنه نفيس وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وهذا آخر ما قصدنا إيراده من جواب أسئلتك وقد تضمن مع وجازته، ما لا مزيد عليه من البيان والإيضاح لمن يفهم ويكتفي بالإشارة عن بسط العبارة وخير الكلام ما قل ودل.

وقد عنَّ لنا أن نسعفك بشرح وجيز على أبيات الشيخ أبـي بكر بن عبد الله العيدروس با علوي التي كنت طلبت منا قديماً الكلام عليها، ونجعل ذلك خاتمة الكتاب تيامناً وتبركاً بكلام الشيخ، نفع الله به وبسائر عباد الله الصالحين.

خاتمة

(١٥) تتضمن شرح أبيات بديعة المباني غزيرة المعاني من نظم سيدنا القطب الرباني أستاذ العارفين وقدوة المحققين الشيخ أبي بكر بن الشيخ عبد الله العيدروس الشريف الحسيني، قدس الله روحه ونور ضريحه وأعاد علينا من بركاته وأسراره في الدارين. آمين:

هبت نسيم المواصلةْ بلا اتصال ولا انفصالْ
بمقتضى مطلع خفي وليس للعلم فيه مجالْ
لأنه ثمرة اليقين ومرتقى رتبة الكمالْ

عبر الشيخ رضي الله عنه بالنسيم، الذي هو من ألطف الرياح وأرقها عن النفحات الإلهية والجذبات الربانية التي يختص الله بها أولياءه ويواصل بها أصفياءه، العاكفين على حضرته المشغوفين بمحبته المقبلين بكنه الهمم على طاعته المشمرين عن ساق الجد في خدمته، المتأدبين بين يديه بالآداب الروحانية والمعرضين عن كل ما يشغل عنه ويبعد منه، من اللذات البهيمية والصفات الشيطانية.

وإنما عبر الشيخ عن هذه المواصلة الشريفة بالنسيم صيانة للأسرار عن إبتذال الأغيار، ونعتهـا بالتقـديس عن الاتصال والانفصال اللذين هما من سمات الأجسام الكثيفة وعنها تتنزه مدارك الأرواح والأسرار الشريفة والحق تعالى منزه عن الاتصال والانفصال، فلا جرم كانت المواصلات التي يواصل بها خاصته ورجال حضرته كذلك، فافهم.

والمـطلع: هو المـرتقى، وخفاؤه: بعـده ودقته عن إدراكات الحواس الظاهرة والأفكار والعقول الباطنة.

وليس للعلم المقتنص بشبكة حواس الأجسام، المدرك بآلة الحوافظ والإلهام فيه مجال يعني اتساع، إذ نصيبها منه أن تؤمن وتصدق به فقط فإنه ليس من شأنها ولا من مدركاتها، لأنه من خاصية الروح ونصيب السر كما قال رضي الله عنه، لأنه ثمرة اليقين.

واليقين: عبارة عن تمكن الإيمان من القلب واستيلائه عليه، على وجه لا يتصور معه التزلزل والتشكك بحال.

وثمرة اليقين هي الكشف والعيان، فإن الكشف حال للموقن، واليقين مقام لـه وهو أعني اليقين حـال للمؤمن والإيمان مقام له. فللمؤمن خطرات من اليقين، وللموقن خطرات من الكشف، ومرتقى رتبة الكمال هي المكاشفة وهي أول قدم في مقامات المشاهدة التي هي الكمال.

ثم قال رضي الله عنه ونفع به:

فالاقتدا ثم الاهتدا والاصطفا حال فوق حالْ
فمن لزم ما أمر به من العمل واليقين نالْ
حلول جنات أنسه يجتني ثمرة الوصالْ

فالاقتداء: هو الاتباعِ للرسول ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأقواله والتأدب بآدابه ظاهراً وباطناً.

فمن أحكم ذلك وأتى به على وجهه مخلصاً لله تعالى فاضت عليه أنوار الاهتداء الذي هو ميراث حسَن الاتباع ونتيجة المجاهدة، قال الله تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾.

فهذه الهداية هي المكاشفة بصريح الحق والمبادأة بأشياء من عالم الغيب وقبلها وقبل المجاهدة هدايتان: إحداهما هداية البيان، والأخرى هداية التوفيق.

والاصطفاء: هو التحقق بحقائق اليقين وفيضان إمدادات القرب من القويّ المتين.

فحال الاهتداء فوق حال الاقتداء لأنه ثمرته.

والاصطفاء فوق الاهتداء وهو روحه ومقصوده ومعناه: أن يصطفي الله عبده لمعرفته ومحبته والمكاشفة بأسرار حضرته ولمشاهدة أنوار ذاته وصفاته المقدسة، فاعلم.

ومن شأن الصادق المستقيم الفطرة، إذا سمع بذكر هذه المواجيد والمشاهداتِ الشريفة أن يشتاق إليها فبشره الشيخ وعرفه الطريق الموصل إليها بقوله: فمن لزم ما أُمر به.

والملازمة: هي المداومة والمواظبة على الشيء والذي يؤمر به العبد هو العمل واليقين، أعني العمل بالطاعة ولها ظواهر تجري على الجوارح الظاهرة كصورة الصلاة والصدقة وما في معنى ذلك، وبواطن يتصف بها ظاهر القلب وهي الأخلاق المحمودة مثل التواضع والزهد والرضا وأخواتها.

واليقين: هو الإيمان الخالص الصادق كما تقدم ومحله باطن القلب، وقد جعل الله برحمته للعبد سبيلاً إلى تحصيل اليقين بملازمة العبادات والنظر في ملكوت الأرض والسمٰوات وتدبر الآيات المنزلات.

فمن قوي يقينه وتزين باطنه وظاهره بملازمة العمل الصالح نال القرب من ربه ونزل بحبوح جنات الأنس به واجتنى ثمرات الوصول إلى كريم حضرته.

وثمرات الوصول: هي المفاتحات والمؤانسات والمحادثات والمسامرات الربانية إلى غير ذلك من مواجيد أهل الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

وقال رضي الله عنه:

هــذه عــلــوم مــحــقــقــةْ رجــالــهــا نعــم من رجــالْ
يــقيــنهــم لا ارتيــاب فيــه وهــديهم ليس بــه ضــلالْ
قــد اقتــدوا ثم جــاهــدوا وشــاهــدوا فــانتفى المحــالْ

لما ذكر الشيخ رضي الله عنه ما واصله الحق به من لطائف المكاشفات وحقائق المشاهدات، ثم أتبعه ببيان الطريق إلى غير ذلك دعوة منه إلى الله تعالى ونصيحة لعباد الله، أخذ نفع الله به في تقرير ذلك الفتوح وتلك الطريق فقال:

هذه علوم يعني التي أشار إليها محققة عند أهلها، الناظرين بنور الله الخارجين من مضيق التقليد إلى فضاء الكشف، الذين لم يقنعوا بالخبر عن العيان كما قنع به جامدوا العقول، الواقفون مع أفكارهم وما يعرفونه من أنفسهم من الذكاء والفطنة، فإن من هذا وصفه ربما أنكر علوم القوم ولم يصدق بها لخروجها عن إدراكه وتحصيله وهو عند نفسه ممن لا يفوته شيء من العلم فيكذب بما لم يحط به علماً.

ولكون التصديق بباطن علم الصوفية فضلاً عن التحقق به شاقاً على من هذا وصفه قال الجنيد رحمه الله: التصديق بعلمنا هذا ولاية.

ثم أثنى الشيخ على المتحققين بهذا العلم من أهل الله تعالى فقال: رجالها نعم من رجال. فإن الرجل من قهر نفسه واستولى عليها ونقاها وزكاها من خبائث الأخلاق وحلاها بمكارمها وقطع عن قلبه علائق الأكوان واستقبل الحضرة الإلـٰهية بوجهه الباطن والظاهر فأقام القلب في مواطن التوحيد والتفريد وأقام القالب في مواطن الخدمة لله تعالى التي هي شأن العبيد وهذا وصف الصوفي المحقق.

والصوفية: هم الرجال الموصوفون بهذه الأوصاف، الذين لم يخالط يقينهم ريب ولا شك ولم يمازج هديهم الذي هو علومهم وأعمالهم ضلال ولا ميل عن الحق ولا ركون إلى الباطل مما لم تقنع الصوفية من إيمانهم ويقينهم بدونه. ولأجله كلفوا نفوسهم تلك الرياضات وحملوها تلك المجاهدات حتى صفت ولطف جوهرها فأدركت ما غاب عنها من العلوم الغيبية التي تعبدهم الشرع بالإيمان بها، فصارت لذلك علومهم وأعمالهم بعيدة عن الجهالة سالمة من الضلالة لأنهم أخذوها من موطنها واقتبسوها من معدنها.

وما وصلوا إلى ذلك إلا بعد ما تأدبوا بآداب الشرع وعلموا من علوم الإيمان والإسلام ما لا بد منه ثم أخذوا في العمل بما علموا وشمروا في ذلك وأقبلوا على مجاهدة النفوس وتهذيب أخلاقها، بأنواع الرياضات.

وإلى ذلك أشار الشيخ رضي الله عنه بقوله: قد اقتدوا يعني بالاقتداء ها هنا أنهم علموا ما لا بد من علمه وعملوا به.

وإلى الرياضة والتهذيب أشار بقوله: ثم جاهدوا، فلما أحكموا هذين الأصلين العلم والعمل به وحسن الرياضة للنفوس بفطمها عن مألوفها ومعتادها مع التوجه الصادق إلى الله تعالى تنورت سرائرهم وانفتحت بصائرهم فشاهدوا عالم الملكوت وتحققوا بحقائق اللاهوت، فانتفى المحال حينئذٍ أعني انتفاء شهوده وأما وجوده فلم يزل منفياً.

والمراد بالمحال هاهنا: ما لا حقيقة له ولا استقلال عند النظر إليه من حيث هو. وهذا وصف لازم لكل ما سوى الله تعالى.

ثم قال الشيخ رضي الله عنه:

علم اليقين ثم عينه ... بل حقه ما بقي احتمالْ
فنوا عن الكون جملة ... لما بدا طالع الجلالْ
وأحياهم بعد موتهم ... بالجمع في مشهد الجمالْ

أعلم أن علم اليقين يعبر به عن الإيمان الصادق المؤيد بالبراهين الصحيحةْ والأدلة الصريحة، وعين اليقين مرتبة فوقه وهي أن يستغني الإنسان عن الإستدلال لظهور الحق له من طريق العيان أو قريب منه.

وأما حق اليقين فهو المرتبة العليا المشار إليها بالكشف المطلق الأسنى، المخصوص به أكابر الأولياء وخواص العارفين الأصفياء وفيها رسخت أقدام الأنبياء وكمل ورثتهم من الصديقين.

وأما قوله نفع الله به: ما بقي احتمال أي ما بقي للشك موضع، ولا للارتياب محل.

والفناء عن الكون جملة حال شريف ينازله أهل الله وله معان جليلة ودقيقة والمراد هاهنا فناء شهود الإنسان لنفسه ولغيره من الكائنات.

والأمر الذي ينشأ عنه هذا الفناء تجلي صفات الحق الجلالية للقهرية وعند تجليها تنمحق الرسوم البشرية وتضمحل البقايا الكونية.

فإذا صح الفناء بهذا المعنى تجلى عليهم الحي القيوم بالأوصاف الجمالية اللطفية فتحيي أرواحهم وتنتعش أسرارهم وتبقى رسومهم وعوائدهم على ما هي عليه من الإماتة الحاصلة بالإفناء الجلالي فيبقيهم ما شاء سبحانه في هذا المشهد الجمالي المعبر عنه بالجمع، وفيه تجد أرواحهم من نعيم القرب وروح الأنس بالله شيئاً لا يُعَبّرُ عنه، وعليه بعد مفارقته يتأسف المحبون وإليه يشتاق المحققون.

وإلى ذلك النعيم والروح العظيم، أشار ابن الفارض رحمه الله في قوله:

تلك الليالي التي تعتد من عمري — مع الأحبة كانت كلها عـرسا
لم يحل للعين شيء بعد بُعدهم — والقلب مذ أنس التّذكار ما أنسا
يا جنة فارقتها النفس مكرهة — لولا التأسي بدار الخلد مُتُّ أسا

وفي كلام الناظم نفع الله به وكلام الشيـخ السودي وغيرهما من العارفين أرباب الإشارات والتمكين إشارات كثيرة إلى ما ذكرناه.

وذلك المقام الذي ينقلهم الحق إليه أعني ينقل إليه منهم من أراد أن ينفع العباد به أكمل وأشرف وهو مقام البقاء ومنه يرجع العارف إلى الخلق، فيدعوهم إلى الله تعـالى ويتخلق لهم بأخلاقهم تكلفـاً لتقع المنـاسبة بينهم وبينـه فيستجبون له.

وتحقيق ذلك يستدعي بسطاً كثيراً وتحته معان دقيقة وأسرار غامضة لا يجوز إيداعها الكتب مخافة أن يعثر عليها من ليس من أهلها فيدعيها حالا لنفسه، فيضل عن سواء السبيل.

ثم قال الشيـخ رضي الله عنه:

حتى صفى إبـريـز تبـرهم — فـلا يـســاويـه قط مـالْ
فـالكـون قـد صـار طـوعهم — ولا يخــالف في الانفـعـالْ

هـذا هـو الملك بِـلا مِـرا   بـلا انعـزال ولا اختـلالْ

قد بيـن الشيـخ حكم الفناء عنـد مشاهـدة الجلال والجمال ثم ذكر نفع الله به حاصل ما تثمره تلك المشاهدة من التصفية من رعونات النفس وكثائف طباعها.

وبيان ذلك: أن السالك وإن بلغ كل مبلغ في رياضة النفس ومجاهداتها، فلا بد وأن تبقى عليه بقايا من رعوناته وعـوائـده والتفاتُ إلى الأكـوان فـلا تنمحق تلك البقـايـا ولا تنمحق تلك الرعونات بدون الفناء الصرف.

ومن ثم لم يؤهـل للمشيخة والـدعـوة إلى الله من السالكين من لم يصل إلى حال الفناء والبقاء.

والإبريز هو الذهب الخالص والتبر منه: ما بقي فيه بقية من غيره، فقد تخلص جوهر أولئك العارفين وصفي عن عوارض الأجسام وعلائق الأكوان فصارت لذلـك معارفهم وعلومهم وأخلاقهم وأعمالهم لا يساويها مال، أي مال غيرهم ممن لم يبلغ إلى مثل حالهم والمال ما ينفع والمراد منه هاهنا ما ينفع عند الله وفي الدار الآخرة.

ولما اضمحلت حظوظهم وفنيت إراداتهم واختياراتهم ولم يبق لهم حظ ولا أرب في غير الله وما يقرب منه أطاعتهم الأكـوان وأذعنت لهم منقـادة، نـظيـر انقيـادهم وطـاعتهم لسيدهم.

والأكوان أبداً تكون مع مُكَوِّنِهَا ومن كان لله كان الله له ومن كان له تعالى كانت الأكوان كلها طائعة ومنقادة له.

وفي بعض كتب الله المنزلة: ابن آدم أنا الله الذي أقول للشيء كن فيكون، أطعني أجعلك تقول للشيء كن فيكون.

فأي شيء يشاؤه العارف ويريده، كان بقدرة الله كما أراد ولكنه قد فنيت إرادته ومشيئته وتدبيره واختياره فلا يريد ولا يختار إلا ما أراده الله واختاره فصار بهذا الإعتبار، مراده عين مراد الله فافهم ذلك فإنه دقيق. والعارف يؤثر بهمته وتوجهه في أي شيءٍ توجه إليه، ولكنه لا يتوجه للشيء إلا عن إذن إلهي.

وطاعة الأكوان لأولياء الله، أمر معلوم بالتواتر. وكثيراً ما تتفق وتقع الانفعالات بالهمم والتوجهات للسالكين المشرفين على مراتب الكشف الذين لم يخلصوا إليها بعد، ويكون في ما يظهر لهم من ذلك تقوية لهم وتقع أيضاً لأهل لفناء وقلّ أن يشعروا به لذهابهم في الله وعدم شعورهم بشيء من الكائنات.

وأما أهل البقاء القائمون بوظيفة الدعوة إلى الله تعالى، فَيَقِلُّ وقوعها لهم لسكونهم إلى الله تعالى وطمأنينتهم إلى ما يجري من أحكامه وأقداره فقلّ أن تنبعث هممهم

وتوجهاتهم لشيء من ذلك، وقد يؤذن لهم في إظهار شيء من الخوارق لتقوية طالب ضعيف القصد أو رد معاند يكذب بآيات الله ويدفع خصوصية الله في أوليائه.

ولو توجه العارف إلى جبل ليزول أو بحر ليغور لكان ذلك بقدرة الله.

ثم إن العارفين لا يقيمون وزناً لمن يشتهي هذه الكرامات ويطلبها لنفسه بحظه. ويقولون: الكرامة الإستقامة، وهي المعبر عنها بحسن المتابعة للرسول ﷺ ظاهراً وباطناً.

ولا يصل أحد إلى شيء من هذه الخوارق حتى تصير نفسه في غاية من اللطافة بواسطة الرياضة ويتحقق بكتمان الأسرار ويتعرى عن الحظوظ النفسانية.

ومن حصل له شيء منها قبل إحكام هذه الأمور كانت فتنة عليه إلا إن عصمه الله وحفظه وهذا الذي وصل إليه أولياء الله من التحرز عن رق الأكوان والخروج عن عوارض الأجسام والإنقطاع إلى الله والإقبال عليه بترك ما يشغل عنه ويقطع عن حضرته كائناً ما كان، فهذا هو الملك الحقيقي الذي يُغبط صاحبه، ولا يحتاج في إقامته وحفظه إلى الرجال والأموال والتدبيرات والاشغال الصافي عن مزاحمة الأغيار السالم من منازعة الأشرار البعيد عن الأنكاد والمتاعب والأكدار، المنزه عن الإنقطاع والإنعزال والزوال والإنحلال، فإن هذه عوارض

تعرض للملك الدنيوي وأما الملك الأخروي فإنه منزه عنها.

وأشرف مراتب الملك: أن يملك الإنسان نفسه وهواه ويستغني عما سوى مولاه ولا يكون له في الدارين إرادة ولا رغبة في شيء سوى قربه ورضاه. وهذا وصف أولياء الله وخاصته رضي الله عنهم ورضوا عنه، ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾.

ثم قال الشيخ رضي الله عنه ونفع به وقد جمع في هذه الأبيات مع وجازتها ذكر ما فتح الله به عليه وأوصله إليه وأتحفه به من الكشف والشهود وذكر الطريق إلى الله بداية ونهاية. ووصف أولياء الله، وذكر جملة ما خصوا به من مزايا القرب من الله وما أتحفوا به من النزاهة عن قذر الإلتفات إلى الأكوان الفانية. وما أيدوا به من التصرف في الوجود والملك الحقيقي الذي لا ينقضي ولا يزول.

تمت وصلوا على النبي ... مهذب القول والفعال
وصحبه سادة الورى ... وآله خير كل آل

فقد آن للشيخ أن يختم الأبيات فليس بعد ما أسعف به الطالب الصادق وأتحف به الراغب الوامق من شرح طريق الله وبيانها بيان.

فختمها بحثّ الواقفين على كلامه، على الصلاة على

الرسول الله ﷺ وهي رحمة من الله مصحوبة بتعظيم يليق بالمنصب النبوي الكريم.

وفي ختمها بالحثّ على الصلاة على النبـي، تنبيه وإعلام وتنويه بأن كل ما حصل للشيـخ ولغيره من العارفين، نتيجة لحسن الإقتفاء وميـراث لكمال الإتبـاع للرسول ﷺ مهذب القول والفعال.

فقوله ﷺ الصدق الفصل المنزه عن كل ما يخالط أقوال الآدميين من كذب وغيره. قال الله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾.

وأفعاله ﷺ منزهة ومهذبة عن كل نقص يعرض لأفعال الإنسان، لأنه قد أيد بالعصمة واختص بالوحي الإلٰهي فهو إنما يقول ويفعل عن الأمر الرباني.

فطوبـى لمن اقتدى به واهتدى بهديه وعمـل بسنته والويل كل الويل لمن حاد عن متابعته وتثاقل عن إجابة دعوته وعمل بخلاف هديه وسنته.

وصحبه: هم الذين صحبوه في حياته وآمنوا به وهاجروا إليه ونصروا دينه وجاهدوا معه وبلغوا عنه ما سمعوه ورأوه من أقواله وأفعاله.

فلاجتماع هذه المزايا والفضائل لهم، التي لم يشاركهم فيها غيرهم كانوا سادات الورى وأئمة الهدى.

وآله: هم أقاربه الجامعون بين النسبة الطينية والدينية، فهم أولى الناس به وأحب الناس إليه وقد فرض الله على الأمة حبهم ومودتهم وأكرمهم بالتطهير عن الرجس فهم لذلك خير آل لأنهم آل من هو خير الخلق وأشرفهم ﷺ.

ولا يكمل لهم هذا الشرف ولا يتم لهم بدون المتابعة منهم لسيدهم الذي شرفهم الله به لأنهم أولى الناس بها وأحق الناس بالتزامها.

ومن لم يحرص عليها منهم ولم يبذل وسعه وطاقته فيها. فاللوم والشؤم اللاحق بالمعرضين عن متابعة المصطفى ألزم لهم، ونصيبهم منه أوفر من نصيب غيرهم.

كما أن الشرف والفضل الحاصل لمن أحسن المتابعة، يكون للمحسنين فيها من أهل البيت النبوي أجلُّه وأكمله وأعلاه وأفضله.

اللهم ارزقنا كمال المتابعة لرسولك ﷺ، في أخلاقه وأفعاله وأقواله وأعنا على ذلك واهدنا إليه وارزقنا الإخلاص والصدق فيه، وأحيينا وأمتنا عليه حتى تجمعنا بنبيك في دار كرامتك وأنت راض عنا في خير وعافية، يا أرحم الراحمين.

وهذا آخر ما تيسر إيراده، من الكلام على أبيات سيدي الشيخ.

ولست أقول ولا أدعي أن هذا الذي ذكرته هو مراد الشيخ بعينه، ولكنه شيء فهمته من كلامه وهو من الحق. فإن وافق ما عناه الشيخ، فللّه الحمد وإلا فهو شيء من الصواب ينتفع به إن شاء الله من وقف عليه من الأحباب والأصحاب.

ثم إني أعترف عن علم ويقين، لا عن ظن وتخمين بـإفلاسي وخلوي عن حقـائق أهـل الله وعن مـواجيـدهم وطرائقهم الحميدة.

نعم أعرف من نفسي حبهم والموالاة لهم، والميل إلى التشبه بهم والتكثير لسوادهم مع حسن الظن والتصديق بكل ما فتح الله عليهم به من المكاشفات والمشاهدات.

وأرجو من الله أن يلحقني بهم ويجعل لي بفضله نصيباً مما خصهم به من معرفته ومحبته. وقد ورد، «المرء مـع من أحب» و «من تشبه بقوم فهم منهم» و «من كثّر سواد قوم فهو منهم».

ومع ذلك فقد اندرست طـريق هذه الـطائفة وعفت رسومها وانطمست معالمها وعزّ وجود الصادقين فيها، بل عزّ وجود من يطلبها بصدق وصار الكلام فيها معدودا عند الناس من البـلاغة والفصـاحة، فـلا حول ولا قـوة إلا بالله العلي العظيم.

وما أحسن قول الشيخ أبي مدين رحمه الله في قصيدته التي أولها:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء ....

مشيراً إلى جملة ما ذكرناه في شأن الإعتذار والإعتراف والإخبار باندراس الطريق، حيث يقول:

واعلم بأن طريق القوم دارسة   وحال من يدعيها اليوم كيف ترا
متى أراهم وأنَّى لي برؤيتهم   أو تسمع الأذن مني عنهمُ خبرا
من لي وأنَّى لمثلي أن يزاحمهم   على موارد لم أُلف بها كدرا
أحبهم وأداريهم وأوثرهم   بمهجتي وخصوصا منهم نفرا
قوم كرام السجايا حيث ما جلسوا   يبقى المكان على آثارهم عطرا
يهدي التصوف من أخلاقهم طرفا   حسن التآلف منهم راقني نظرا
هم أهل ودي وأحبابي الذين هُم   ممن يجر ذيول العز مفتخرا
لا زال شملي بهم في الله مجتمعا   وذنبنا فيه مغفورا ومغتفرا

تم الكتاب المسمى: بإتحاف السائل بجواب المسائل جعله الله خالصا لوجهه الكريم ومقربا إلى رحمته ورضوانه وغفر لنا كل ما وقع فيه مما يخالف الحق أو يميل إلى الباطل أو يوافق الهوى أو داخلنا فيه من رياء وتصنع للخلق. وغفر لمن كان السبب في تأليفه ولقارئه وكاتبه ومستكتبه وسامعه ولوالدينا وأحبابنا وجميع المسلمين، والحمد لله.

اللهم ما بنا من نعمة في بواطننا وظواهرنا وديننا ودنيانا،

فإنا نعلم ونوقن أنها منك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر على ذلك، عائذين بوجهك الكريم من سلب النعم وحلول النقم، سائلين من فضلك أن تعاملنا بمقتضى الجود والكرم، وإن لم نكن أهلا لذلك فإنك أنت أهله.

رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ من إملائه أول يوم الجمعة خامس عشر المحرم، أول شهور سنة ١٠٧٢ اثنتين وسبعين وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

فهـــرَس